

روايات مصرية | 

Looloo

www.looloolibrary.com

(عدد خاص)

١٣

د. أحمد خالد توفيق

الإعلام كأنها الوباء. نقول على طريقة أفلام جيمس بوند: « أنت تعرف الاسم وتعرف الرقم .. إنه الأستاذ حمدي مصطفى .. والرقم هو ٨ و ١٠ شارع ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية. هذا هو المقر الرئيس لكن للمؤسسة عدة مقار وشبكة توزيع هائلة. إنها أضخم بكثير مما توقعت قبل أن أنضم لها.

لم أكن ممن يدموا مع المؤسسة، وعرفت فيما بعد أن أستاذ شريف شوقي صاحب المكتب رقم ١٩ كان أول الكتاب، ثم جاء د. نبيل فاروق ابن مدينتي وكليتي لتنهزم أعماله الأدبية كشلال. كنت قد تخرجت في الكلية عندما جلب لي صديقي بعض كتيبات نبيل فاروق، فقرأتها واعترفت بأن الرجل حقق خطوة غير مسبوقه، فهو يخاطب سناً أكبر ممن خاطبهم محمود سالم بمغامريه الخمسة وشياطينه الـ ١٣ الذين أحمل لهم كل تقدير. وكان يكتب بدقة واهتمام شديدين، كما أنه كان يعرف كيف يشوق القارئ. كان على أن أنتظر عدة أعوام إلى أن أتغلب على خجلي، وأقرر أن أجرب حظي في سلسلة روايات اسمها (ما وراء الطبيعة). وهذا يعني أنني لحقت بمشروع الروايات متأخراً عشرة أعوام. حكيت هذه القصة مراراً، وحكيت كيف أنني في البداية قابلت



مقدمة

ثلاثون .. ١

ثلاثون عاماً مرت على بدء روايات مصرية للجيب، وهي تلك التجربة الفريدة من نوعها، التي قامت على خيال رجل واحد مولع بالاطلاع والمعرفة ومدمن للعمل الشاق، ويكره الأضواء ووسائل

أستاذ أحمد المقدم الذي تحمس لفكرتي، وما زلت حتى اليوم أعتبره من اكتشفني، ثم قابلت الأستاذ حمدي مصطفى بتوصية منه .. الخ .. دخلت المطبخ، وهناك قابلت الفنان - صاحب قلب الطفل - خالد الصفدي لأول مرة، وعرفت الأستاذ رعوف وصفي كاتب الخيال العلمي المهم . ولا شك أنني قضيت أجمل أيام حياتي في مرسم الفنان الراحل إسماعيل دياب يرحمه الله .

بعد هذا جاء الجيل الثاني الذي خرج من سلة الروايات، مثل تامر إبراهيم ومحمد سليمان ، وجاء جيل محمد رضا وسالي وحسن الحلبي. ولم أدرك ضخامة المشروع الذي قام به حمدي مصطفى إلا عندما أدركت أن هناك جيلاً كاملاً قد تربى على هذه الكتيبات، وأن أبناءنا صاروا في كل مكان .. منهم الطبيب والصيدلي والقاضي والعالم الكيميائي والرقيب الإداري والمخرج والضابط .. لكن حمدي مصطفى كان قد رحل بعد معاناة طويلة مع المرض . ولقد رأيته في داره التي لم يغادرها طيلة ثلاث سنوات، فتذكرت قصيدة أحمد شوقي عن مصطفى كامل :

ولقد نظرتك والردى بك محقق ... والداء ملء معالم الجمعان

تُمَلَّى وَتَكْتَبُ والمشاعل جمة ... ويداك في القرباس ترتجفان
فهشت لي، حتى كأنك عاندي ... وأنا الذي هذ السقام كياني
بالضبط .. كان يبتسم لي، وهو يدير المؤسسة كلها من مقعده
الذي لا يغادره، وكانت هناك خادمة ريفية طفلة تقف جواره
مهمتها أن تضع السماعة على أذنه، لأن يديه لم تعودا قادرتين على
حمل الهاتف، كما أنها كانت تشعل لفاقة التبغ وتدسها بين شفثيه
ليأخذ نفساً ثم تنفضها .. وهو مشهد طريف قد يجعلك تبتسم
لكنه كذلك قاس أليم، فهو لم يكن قادراً على رفع اللفاقة لضمه ولا
على الإقلاع عن التدخين .. هذا رجل لم يكف عن العمل لحفلة
واحدة، وكان يقضى يومه في قراءة الأعمال الجديدة، وشروط
مناقصة آلة الطباعة التي ينوي شراءها، ومشاكل الضرائب،
وتجربة نوع جديد من الأحبار، وانتقاد نوعية ورق لا تطابق ما
يريد، ومراجعة أرقام المبيعات والفواتير، ولوم المصحح على
خطأ في إعراب كلمة لم يلحظه، وفرض مشاجرة تمت بين عاملين
في المطبعة أو قسم التغليف، وتصميم إعلان جديد يظهر في
الصحف، ومراجعة بروفات كتاب سلاح التلميذ، والتدخين بلا
توقف .. و... و.... وبالطبع كان يتناول شدة في نفس المكتب .

ليرحمه الله .. لقد أحببت هذا الرجل بصدق.

لهذا عندما طلبوا منى فى المؤسسة أن أقدم عددًا خاصًا بمناسبة ثلاثين عامًا على صدور الروايات، تحمست بشدة .. يجب أن يستحق هذا الكتاب أن يُهدى لذكرى الرجل العظيم الذى كان بيننا. يمكننى تخيله وهو يستعرض الفكرة فى ذهنه .. كتاب خاص بمناسبة مرور ٣٠ عامًا على صدور الروايات .. يشعل لفافة تبغ .. يخرج رأسه من النافذة الجانبية ليطلب شيئًا من الأستاذ خالد السكرتير .. يبتسم وهو شارد الذهن .. يناولنى قطعة من الكارامل. لا يبدو عليه أنه سمع اقتراحى بتأنيًا ثم اكتشف أنه ما زال يقلب الفكرة فى ذهنه .. لقد راقت له ...

تحمست للفكرة لكنى لم أعرف ما يجب أن أقدمه بالضبط.

منذ أعوام خطرت للأستاذ حمدي فكرة أن يكتب كل كتاب المؤسسة عددًا صيفيًا خاصًا سميكا، وقد نضنا الفكرة .. كان دورى فى هذا الكتاب قصة قصيرة اسمها (ثلاثة) . وهى تدور حول جريمة ذات طابع طبى يقوم بالتحقيق فيها رفعت إسماعيل وعلاء عبد العظيم . وكالعادة يجد الأول تفسيرًا خوارقيًا، بينما

يجد الثانى تفسيرًا طبيًا ، بينما تراقب عبير عبد الرحمن هذا كله . كانت قصة جيدة على ما أعتقد، لكن لا أعرف أين ذهب هذا الكتاب، كما أنتى فقدت أصول القصة .. يبدو أننى لم أكن أستعمل الكمبيوتر فى الكتابة وقتها . وعلى قدر علمى لا يذكر أحد هذه القصة على الإطلاق .

خطر لى اليوم أن أقابل كل شخصية من شخصياتى، رفعت إسماعيل - قبل وفاته طبعا - وعلاء عبد العظيم وعبير عبد الرحمن .. وأسأل كل واحد منهم عما يعنيه رقم ثلاثين له . بالمناسبة ما سر ولعى الغامض بحرف (العين) فى أسماء أبطالى؟ ... لم ألحظ هذا إلا الآن .. لابد أنه نوع من الوسواس القهرى .

كانت المغامرة رقم ثلاثين فى حياة رفعت هى (بعد منتصف الليل) .. البرنامج الإذاعى الذى كان يقدمه بعد منتصف الليل ويتلقى فيه مكالمات المستمعين الذين يرون أشياء مخيفة .

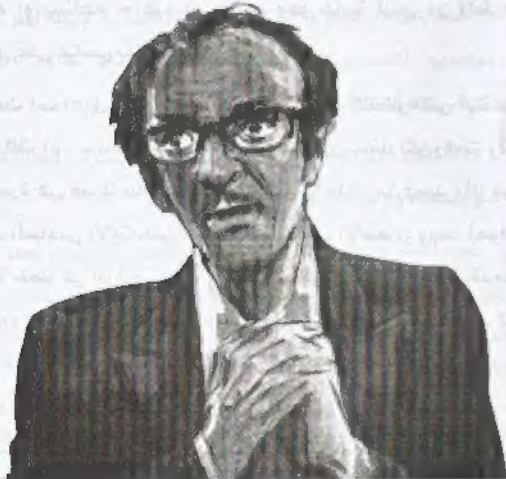
المغامرة رقم ثلاثين فى حياة عبير عبد الرحمن هى (عبرى) وهى محاولة مضنية لاستكشاف عالم دستوفسكى .. دستوفسكى

روايات مصرية للجيب



30

ما وراء الطبيعة



أديب رهيب مخيف، لذا لا تستطيع إلا خدش قشرة سطحية من عالمه .

المغامرة رقم ثلاثين في حياة علاء عبد العظيم هي (قصصات)، وهي تحكى عن تجربته مع قراءة الوجدان الجمعى لطبيب إسرائيلى .. والكتاب أقرب لسجل المذابيح الإسرائيلىة - بعضها طبعاً - حتى تظل جذوة الكراهية المقدسة مشتعلة . عندما ينال الفلسطينيون دولتهم وحقوقهم سأمزق ذلك الكتيب فى رضا وأنسى الماضى .

ترى ماذا يمثل رقم ثلاثين لكل منهم ؟
سوف نعرف حالاً .. فقط قلب الصفحة - أو انظر اليسار - من فضلك ...

Looloo

مع ذى رفعت اسماعيل.com

- ١ -

يجلس في شقته التي لم يتركها منذ أربعين عامًا تقريبًا. ليست في حال سيئة جدًا، وليست شقة عزاب كما يخيل لك، فذلك المرأة (أم شخص ما) تعني بها من وقت لآخر، كما أنها تقسل الثياب .. لكنها لا تتعامل مع المطبخ أبدًا. يفضل رفعت أن يطهو الطعام لنفسه أو يبتاعه جاهزًا أو يجوع. وهو عامة ليس من الطراز الأكل على عكس بالضبط .

رفعت إسماعيل .. أول اسم كتبته وتذكره القطار التي ابتعتها لأصل للقراء . صداقة طالت أكثر من عشرين عامًا، لكن رفعت ولد لأول مرة في قصة ساذجة بسيطة كتبها منذ زمن بعيد وأنا في النصف السادس الابتدائي . كان يحمل نفس الاسم .. وبعد أعوام طويلة خطر لي أن أخرج هذا البطل العجيب من الثلاثية وأقدمه للجمهور . إنه غريب واهن عصبي مليء بالعيوب ، لكنك تجد له صدى في نفسك . كنت أعرف أن نقيض البطل هذا سيكون غريبًا طريفًا مع جمهور اعتاد أدهم صبرى الوسيم القوى . هناك سيدة أمريكية فاقنة تزوجت من رجل بدين قصير أصلع مضحك .. قالت لصديقتها : « يدا لي غريبًا جدًا وسط كل الموديلات الذين يتقدمون لي ، وبدا كذلك مثيرًا للشفقة .. لذا تزوجته على الفور ! »

حتى الفنان إسماعيل دياب يرحمه الله لم يفهم هذه النقطة أولاً ، فبدأ يرسم رفعت وسيماً قويًا حتى شرحت له وجهة نظري .. بل إنني رسمت له تخيلي لهذه الشخصية . كان مفهوم يطل قصص مصاب بضيق الشرايين التاجية والربو صعبًا لدى كثيرين .

أحدثت الشخصية صدمة في البداية، وجاءت الكثير من خطابات الهجوم والشتائم لأن الشخصية بدت لهم غريبة، ومواضيع القصص أغرب، ونصحتني الأستاذ خالد الدسوقي سكرتير المؤسسة ،

.. لا تكتب في الرعب يا دكتور .. حاول أن تكرر قلمك للقصص البوليسية أو الجاسوسية .

ثم بدأت أدرك أن الناس أحبوا رفعت إسماعيل بعد الكتيب الثامن أو التاسع . ووجدت أن الأستاذ خالد يتابع الكتيبات في اهتمام ويقترح حلولاً أو تعديلات . لقد اجتاز رفعت الاختبار ...

قبل أن يثبت رفعت قدميه على الأرض، خطرت لي فكرة العوالم الموازية .. أرض أخرى تشبه أرضنا جدًا، وتختلف عنها في شيء بسيط لكنه جوهري . اقترحت على الأستاذ حمدي مصطفى بدء سلسلة أخرى، لكنه قال في دهشة :

« ألا تنتظر حتى تثبت السلسلة الأولى نجاحًا ؟ »

ثم وجد الحل ،

« دع رفعت يتلقى خطابًا غريبًا من شخص يدعى سالم .. وهو ينشره كما هو بلا تدخل ،

هكذا أدمجت الكتيب الذى انتهيت منه فى سلسلة ما وراء الطبيعة ، ولفترة طويلة جدًا داعبنى حلم الانفصال بسالم وسلمى ، ثم عدلت عن ذلك ...

كنت فى البداية أرمح فى مملكة ليس فيها سوى ... أحقر فى منجم لا يوجد به عمال غيرى . كان كل شيء غريبًا طريقًا .. تكتب عن بيت مسكون أو نبات شيطاني أو سهرة مخيفة مع أصدقاء أحدهم شبح ، فيتحمس القراء .. كل هذه كانت أفكارًا طازجة وقتها ، وكان القارئ مستعدًا للانبهار .. مع الوقت قرأ القارئ وشاهد كل شيء وصار أقل استعدادًا للاهتمام .. صرت أفتش فى ركن مظلم من الكهف عن شيء لم يجده الآخرون و - الأهم - لم أجده أنا .. كانت المهمة تزداد صعوبة لكنى ظللت قادرًا على إيجاد تيمة جديدة فى كل مرة .

عرفت مع الوقت أن الاختيارات تضيق وأن رفعت لن يظل حيًا

للأبد . كنت ألتقى نفس الخطابات التى ألقاها منذ العدد الأول ، والذى يقول بعضها إن الأعداد الأخيرة سارت (زى الزفت) ولم يعد مستواها كما كان ، وقد اعتدت هذه الخطابات على كل حال من مدرسة (آخر عدد هو الأسوأ) أو مدرسة (عمرالى فات ما حيرجع تانى) . بعد العدد السابع من (ما وراء الطبيعة) ، أرسل لى أربعة شباب يقولون : إنه لا جدوى مما أكتبه ، وإن كتاباتى (الأخيرة) سيئة جدًا ولم تعد كما كانت ، وأنها الخطاب قائلين : « من تحسب نفسك لتصدر قسماً مثل سيدك نبيل فاروق يا صعلوك ١٩ » . أقسم أن هذا حدث ! . وحدث بعد الكتيب السابع بينما السلسلة تتجه نحو ذروتها . تصور مدى الحقد والحماسة اللذين يجعلان أربعة شبان يجتمعون ليكتبوا هذا بخط واضح جميل ويوقعوا عليه معًا ، ويلصقوا طابعًا ويكتبوا العنوان ويرسلوا الخطاب !

اعتدت هذا من وقت لآخر ، وتعلمت أن على المرء أن يتحمل وقاحة البعض وإلا لما تحرك خطوة واحدة . لكنى مؤخرًا بدأت أشعر بالغبين وضاق صدرى أكثر تجاه هذا النوع من الخطابات ، خاصة مع الدقة والإتقان اللذين كتبت بهما آخر أعداد برغم ندرة الأفكار . وهكذا قررت أن يموت رفعت عند الكتيب الثمانين ..

لقد انتهى الغرض منه وأنهى دورة حياته مثل ذبابة مايو .. بعد أن

يموت سيظل الناس يذكرونه طويلاً ويفتقدونه .. ربما هو أول بطل قصص يموت فعلاً . لا أذكر مثلاً آخر سوى هركيول بوارو . تلقيت ثوم آلاف القراء على موته ، وبعضهم شتمنى بصراحة ، لكنى كنت أقول ، لو تركته لهاجمتموه بشراسة .. إذن الموضوع هو ، لماذا لم تترك رفعت حياً لنخبرك بعد كل كتيب كم صار مملاً 19 ..

لقد كان رفعت هدفًا قادمًا للتصويب ، وأنا قد انتزعته من على الجدار ووضعتة فى الدرج .. لهذا بدا تصرفى قاسيًا غليظًا بالنسبة لمن أعدوا سهامهم ..

ما علينا

لم يكن رفعت قد مات عندما أجريت معه هذا اللقاء .. لا بد أنك استنتجت هذا .

أنا جالس فى الصالة المعتادة التى توجد فيها تماثيل من ثقافة الزولو ورمحان على الجدار ، وهناك بعض دمي الفودو وى (نيش) جانبى . هناك بعض أقنعة الموت المكسيكية الشهيرة .. هناك كتب متناثرة هنا وهناك . هناك آيات قرآنية معلقة كثيرة شان من يتوقع خطرًا خارقًا للماديات . نصف شياطين العالم تلاحق هذا الرجل ، ونصفها الآخر يحوم حولنا فعلاً ولا نراه .

هناك لوحة زيتية لفتاة شقراء ناحلة نبيلة جدًا ذات أنف أفتى .. واضح أنها ماجى ماكيلوب طبيبًا . تبدو أقرب لأميرة بريطانية من عالم الخيال .

يجلس أمامى فى منامة زرقاء فوقها روب يجعله أضخم حجمًا ، لكنك ترى رقبته التحيلة فتشعر أنه سلحفاة عجوز .. يبدو أنه قد سئم وجودى .. رفعت لا يتحمل أى زيارة من كائن بشرى أكثر من عشر دقائق . أما عن مكالمات الهاتف فلا تزيد على دقيقتين فى الغالب . لا أذكر من القائل إنه لا يواظب على التنفس إلا لأنه يتم برغمه .. أعتقد أنه هو نفسه من قال ذلك .

قلت له فى حذر ،

.. السؤال الذى قلته لك فى الهاتف هو نفس السؤال الذى أوجهه الآن .. ما معنى رقم ثلاثين بالنسبة لك ؟

قال فى ضيق ونفاد صبر ،

.. لو كنت تعتقد أننى رائق المزاج لألعاب حفلات الكلية هذه فأنا

قلت بسرعة :

.. «وقد قلت لك إننى مكلف بهذه المهمة .. قالوا لى .. لى .. لى ..

راح يفكر بعض الحين ..

ثلاثون .. ثلاثون فى حياة كل منا رقم ثلاثين .. بالتأكيد.

هناك عدد خاص من سلسلة هذا الشيخ اسمه (٣٦) لكن رقم ٣٦ ليس موضوعنا اليوم ..

قال بعد قليل ليتخلص منى،

.. أعتقد أن لدى قصة لا بأس بها .. لقد لعب الرقم (ثلاثون)

دورًا فى حياتى بالتأكيد، وأعتقد أنه لعب دورًا مهمًا فى حياة كل إنسان،

★ ★ ★

قال رفعت،

الرقم ثلاثون يذكرنى جدًا بالـ(ستون هنج) Stonehenge

ذلك الأثر العجيب فى جنوب إنجلترا . هناك دائرة يطلقون عليها

اسم دائرة السارسين Sarsen وهو نوع غريب من الأحجار ..

هذه الأحجار تصنع الدائرة المكونة من ثلاثين عمودًا .. هناك

كذلك صفوف يطلقون عليها الـ Y والـ Z . وهذه الصفوف صنعت

من حجر صدها ثلاثون . بالمناسبة (سارسين) هى اشتقاق من

كلمة (سارسين) وهو الاسم الذى كان البريطانيون يطلقونه على

المسلمين فى الماضى ما دخل المسلمين بهذه الحجارة ؟
لا أحد يعرف ..

كل ما يتعلق بالستون هنج غامض غريب .. هى فصل محبب دائم
فى أى كتاب عن الأسرار الغامضة .. الأهرام .. أهرام الأزتك ..

الستون هنج .. كهوف تسيلي .. رجل الثلوج المخيف .. الخ ..

لهذا كان ينبغى أن أزور هذا الأثر العجيب ..

وقد فعلت .. زرقته خمس مرات وهى كل مرة أنبهر، لكنى على كل

حال أنا جئت من أرض الأسرار التى تثير الذهول .. يكفى أن ترى

وجه سائح يرى معبد إدفو أو الدير البحرى .. أى أننى كنت أنبهر

فى إنجلترا لكن ليس بشدة ..

كان هذا هو العام ١٩٨٥ ..

أراد حطفى الأسود أن أكون هناك فى أول يونيو .

كنت مع ماجى طبعًا .. من الصعب أن أتواجد فى هذا المكان من

العالم من دون هذه الحساء البريطانية الراقية . وكنا متوجهين

إلى ويلتشاير .. جنوب ساذريوى .. هذا هو المكان الذى يوجد

فيه الستون هنج - إنه مزار سياحى بالغ الأهمية فعلاً ..

كنا فى القطار، وكنت أراقب الحقول المراكضة جوار النافذة،



عندما وضع الرجل الجالس أمامي جريدته، وراح يكلم ماجي ولكنه مستحيل أن أتابعها برغم إجادتي شبه التامة للإنجليزية المكتوبة، وبدأ عليها بعض القلق .

لما انتهى من الكلام، نظرتُ لي وقالت،

.. هناك متاعب ...

.. كالعادة .

لكنها كانت جادة .. أضافت ،

.. هناك مسيرة لدعاة السلام تتجه نحو ويلتشاير .. هؤلاء

يطلقون على أنفسهم اسم (مساخرو العصر الجديد) .. وهم يريدون أن ينظموا مهرجانهم في ستون هنج،

هذا يبدو مألوفًا على كل حال .. مثل الهيبيز الذين نظموا مهرجان وودستوك منذ نحو خمسة عشر عامًا ... لكنني كنت أحسب الهيبيز اقترضوا ..

قالت ماجي في قلق،

.. الحكومة البريطانية مصرة على ألا يتم هذا المهرجان ،

هكذا القصة الدائمة . نفس الشيء حدث تقريبًا في

وودستوك .. الصدام بين هيئة الدولة وعصا النظام من جهة ، والتمرد والفضوية من جهة أخرى .. المشكلة هي أنني لا أفهم لماذا يثور هؤلاء الفتية بينما هم ينعمون بحكومات قوية قادرة ... أراها الفوضوية فحسب ..

قلت لماجي،

.. لا علاقة لنا بهذا ...

.. لا أعتقد أننا سنمسل للستون هنج أصلاً . سنرجع على الأرجح ،

ثم أفهم مدى دقة كلامها إلا عندما وصلنا إلى ويلتشاير ..

كانت المحطة محاصرة بسيارات مجهزة ذات ألوان فاخرة .. ألوان الهيبيز التي تذكرك بمصان مشجرة . الحافلات مزخرفة وهناك عشرات الأعلام ورمز السلام العالمي .. كل فتاة تقريبًا لا تلبس شيئًا، وكل شاب تقريبًا يمسك جيتارًا ويدخن الحشيش .. هناك الكثير من المقطورات التي يبيتون فيها .. يبدو أن معظمهم بلا بيت .

وعندما غادرنا المحطة وسط الزحام، هرعت فتاة تلقى بطوق أزهار حول عنقي، بينما فتاة أخرى طوقت عنق ماجي وقبلتها ثم أعطتها زهرة وهتفت ،

« السلام .. تذكروا ! »

مشينا وسط الزحام والصخب نحاول أن نشق طريقًا ...

وهجأة سمعنا الصراخ وبدأ الزحام من حولنا ينشق إلى شطرين ..

رأينا خيول الشرطة قادمة .. على ظهر كل حصان رجل شرطة بريطاني حازم يضع الخوذة ويلوح بهراوة .. واضح أن الحكومة البريطانية مصممة على إثبات أنها تسيطر على كل شيء . ومن بعيد ظهرت تلك العربة العملاقة التي ترش الماء على المتظاهرين ..

ورأيت صفًا من رجال الشرطة يحملون بنادق الغاز غليظة الفوهات .. عرفت فيما بعد أن هناك نحو ١٢٠٠ رجل شرطة في الميدان ...

قلت لما جرى :

« أعتقد أن علينا أن نبتعد .. سوف تشتعل الأمور حالاً .. »

نداء للمتجمهرين .. لن يسمح لأحد بالوصول لستون هنج ..
ننصحكم بالتفرق !

نداء للمتجمهرين - لن يسمح لأحد بالوصول لستون هنج ..
ننصحكم بالتفرق !

دوى الصوت عبر مكبرات الصوت .. لكن بدا واضحًا أن الشباب لن يتفرقوا ..

ثم سقطت أول قنبلة غاز .. لحسن الحظ كانت بعيدة عنا ولا لاختنقت فورًا .. فقط رأيت الدخان .

هذه هي المرة الثانية التي أجد نفسي فيها محشورًا في مظاهرة لا دخل لي فيها .. مرت بذات التجربة من قبل في المكسيك مع لمة ملك الذباب إياها ..

الحقيقة أن الحظ العاثر وضعنا في وسط معركة (بين فيلد Beanfield) أو (حقل الفول) ، وهي من أعنف المعارك التي اصطدم فيها البوليس البريطاني بالمتظاهرين ..

هنا دوى انفجار ..

هذه قنابل مولوتوف .. هؤلاء المتظاهرون لديهم قنابل مولوتوف ..

- ٢ -

بدا واضحاً أن رجال الشرطة البريطانيين فقدوا أعصابهم ..
كانوا يضربون بعنف وهياج وسنابك خيولهم تدوس من يتواجد
في ذلك المكان .. ومن عدة أماكن تطايرت زجاجات المولوتوف
المشتعلة لتسقط وتتناثر النيران السائلة ..

ومن مكان آخر تناثر رذاذ الماء القوي من عدة خرطوم إطفاء
تحاول تفرقة الشباب .. ودوى صوت زجاج يتحطم .. رجال
الشرطة يحطمون زجاج سيارات الشباب ..

كل هذا العنف من أجل السلام !!

جذبت يد ماجي ورحنا نحاول الابتعاد عن المكان، لكن من
الواضح أننا محاصرون بالكامل .. الحركة وسط هذا الزحام صعبة
جداً .. لا سبيل للفراق ..

قطعة حجر تمر جوار رأسي ...

ماجي تقف أمامي لتمنع رشاش الماء من إصابتي ، وهذا يثير
غیظي ... من قال إن من واجبها أن تحميني ؟! هذه مهمتي أنا ..

حصان من الشرطة يركض نحونا وعلى سهوته رجل شرطة
محقق .. يطوح بهراته ذات اليمين واليسار . شددت ماجي إلى

الأرض قبل أن يظفر برأسها هذا الحيوان ..

الحقيقة أن الأمور تسوء بلا توقف ..

من موضع ما سمعت من يقول لي،

.. من هنا !

ثم أرسوى اليد التي تشير فجذبت ماجي وركضنا ...

كان هذا الذي نادانا قد توارى في حارة ضيقة بين بنايتين .
شارع منحدر بشكل حاد كما عرفت فيما بعد كل شوارع ويلتشاير.
هكذا حتى لو توقفت لتكتشف أنك تركض ركضاً ..

كانت هناك حانة ..

حانة بريطانية جداً من التي تبرز منها لافتة صغيرة عليها
كوب جعة، وقد كتب عليها بحروف قوطية ... حروف يصعب أن
تقرأها ...

عرفنا أن منقذنا قد دخل هناك فهرعنا خلفه ..

في الداخل كانت الإضاءة خافتة، لكننا قدرنا أن معظم
الموجودين كانوا في المسيرة وقد تواروا هنا مثلنا. هناك رجال
وقتيات .. بعضهم يشرب الجعة وبعضهم يظفر عبر النافذة الضيقة

فى توتر ..

لا يوجد شيء غريب فى مظهرهم ، لكن منقلدنا كما فهمت من نظراته هو شاب ملتج له شعر بنى ويضع عوينات صغيرة داكنة ، ويرفع شعر رأسه على طريقة الثمانينيات التى تجعله أشبه بالأسد ..

كان يلهث .. وكنا مثله ..

قال لنا وهو يشير بيده للساقى كى يجلب لنا ثلاثة اكواب (شوب) من الجمعة ،

.. كنتما موشكين على الهلاك .. لقد جن رجال الشرطة ،

قلت له أن يجلب كوبين فقط له وماجى ، ثم أضفت ،

.. الاستفزاز متبادل .. لقد رأيت زجاجات مولوتوف ،

مد يده ليصافحنى وقال ،

.. أدعى آرثر جليerman ... من الدرويديين الجدد ،

صافحته وقلت ،

.. رفعت إسماعيل .. مصرى .. هذه مس ماكيلوب ..

كنت أعرف الدرويديين الجدد Druidry طيفا ... هؤلاء قوم

يمشقون ال (ستون هنج) ويحجون لها عدة مرات فى العام .. هذه حركة نشأت فى القرن الثامن عشر، ومهمتها إحياء الوثنية وتعدد الآلهة كما كانا فى إنجلترا قديما ، وكما كانت تمارسها قبائل السلت فى عصر الحديد .. لو كنت قد قرأت مفاخرتى مع (الهالوين) فانت تعرف كل هذا الكلام و(ساوين) إله الدرويديين .. الخ .. هذا نوع عجيب من الإصلاح الدينى ، أن تعيد الوثنية للعالم بعدما استقرت المسيحية ...

عبادة الطبيعة عنصر مهم جداً من الدرويدية الجديدة. لو كنت قد رأيت فيلم (الرجل الخيزران) فى نسخته القديمة الساحرة (١٩٧٣) ، فسوف تفهم ما أتحدث عنه .. الكاهنات اللاتى يرقصن حول الستون هنج فى ضوء الفجر، وعبادة البحر .. والتضحيات البشرية من أجل خصوبة الأرض ..

لحسن الحظ لم يصل الأمر لهذا بعد ..

فقط هناك عدة أعياد فى السنة .. ثمانية على وجه التحديد، معظمها له مناسبات فلكية محددة ترتبط بالشمس والاعتدال القمري (الذى لا أعرف ما هو لكنه يوجد فى هذه الأمور دائما) .. يسمونها (عجلة الحياة) ... وهناك كهنة وراهبان ورقصات حول الستون هنج بثياب بيض . مع تيجان للشجر من الأزهار الحقيقية

مثير يجذب السياح كلهم ،

شمر القميص عن ساعده ليربها ندية طويلة هناك .. أنا طيب
لذا اشعر بانجذاب خاص نحو الجروح .. هذا جرح ملتئم منذ زمن ،
لكنه التام تلقائيا وليس نتيجة خياطة .. ما يسميه الجراحون بـ
(النية الثانوية secondary intention) ..

قال الرجل ،

.. ادعى ويليام . هذا جرح أصابني من حادث وأنا أركب الدراجة
التارية ...

هذا ممتع حقًا . لكن ما دخلنا بهذا كله ؟ . استطرد ،

.. ررت الستون هنج في الصباح وجدت ان الجرح التام تماما .
تكلم كثيرون عن قدرة الستون هنج على شفاء الجروح وأنا دليل
حى على ذلك . تقول الأسطورة ان بعض العمالقة جاءوا بهذه
(الستون هنج) وزرعوها هنا لتكون قادرة على شفائهم .. هناك
أسطورة تقول : ان الملك ارثر جاء بها عن طريق ساحره القدير
مرلين . وكان فرسان المائدة المستديرة يجتمعون هناك ،

كنت قد سمعت هذه الأسطورة من قبل . كاميلوت قريبة من
هذا الموضع على كل حال ..

أنها صورة مثيرة للخيال، لكنها كذلك تدل على المجنون ..

تواجد هؤلاء هنا مفهوم إذن ..

هذا عيد من أعياد عجلة الحياة، وقد أفسده رجال الشرطة ..
سألته ،

.. هل تنوون الذهاب إلى (ستون هنج) ؟

رشف رشفة كبيرة من الجمرة هصار له شارب أبيض كبابا طويل ،
وقال ،

.. هي مخاطرة كبرى .. (الستون هنج) يبعد سبعة أميال . وقد
أغلق رجال الشرطة الطرق . لكننا ستحاول أن نتجه الى هناك
متفريقين .

ظهر رجل اخر في منتصف العمر . يلبس قميصا (كاروهات)
مفتوح الصدر وله شارب كث وصوت غليظ لا تصدق أنه حقيقى ..
قال لنا ،

.. ماذا تفعلان هنا ؟

قالت ماجى في هدوء ،

.. ما يفعله الجميع .. أردنا زيارة الستون هنج .. هذا مكان غامض

ونظر باسمًا إلى صاحبه الذي يدعى آرثر .. قال الشاب آرثر ،

.. علماء آثار آخرون قالوا : إنها مقابر عتيقة تعود لعام ٣٠٠٠

قبل الميلاد .. عالم آثار اسمه بيرسون استخرج آلاف العظام

البشرية من هذا المكان .. عالم يدعى (أوبرى) وجد الكثير من

حفر الدفن لذا أطلقوا عليها اسم (حضر أوبرى) .

كانت مشكلة هذه الآثار هي أن من يبحثون فيها دومًا إما فريق

من علماء الآثار الذين يجهلون كل شيء عن علم الفلك، وإما فريق

من علماء الفلك الذين يجهلون كل شيء عن علم الآثار .. علماء

الفلك - وعلى رأسهم (جيرالد هوكنج) - يؤمنون أن هذه الأحجار

أجهزة رصد غاية في التعقيد .. وقد أطلقوا عليها اسم (الكمبيوتر

الحجري) .. هذا الكمبيوتر له وظائف دينية وسياسية مهمة لدى

الأقدمين .. لكن هذه النظرية يدحضها علماء الآثار .. لو كان

ستون هنج مرصدًا لكان من الواجب ألا تحيط به أية أشجار، بينما

برهنت الحفريات على أن المنطقة كانت غابة كثيفة في الماضي

البعيد .

الحقيقة أن الأساطير التي تدور حول ستون هنج، تذكرك جدًا

بعالم الأهرام الغامض، وحتى قلعة الشفاء موجودة في الهرم كما

قيل ..

سوف تظل هذه الألقاز ملفات مفتوحة يتم التحقيق فيها ولن

نصل لإجابة أبدًا كما هو واضح ..

ساد الصمت .. ومن بعيد تسمع صوت الطلقات والصراخ والزحام .

لا بد أن وهليس المعركة يشتعل . سوف تدخل معركة (بين فيلد)

التاريخ باعتبارها من أعنف أعمال البوليس البريطانى، ولن يمر

اليوم قبل اعتقال نحو ستمائة من المتظاهرين .. أكبر عدد يتم

اعتقاله منذ الحرب العالمية الثانية ..

قالت لى ماجى وثبتها لم تفعل ،

.. نفس ما يقال عن الأهرام عندكم ...

هى الضوء الخافت تبادل الرجلان النظرات .. أدركت أن عددًا

من الجالسين فى الحانة ينظرون لنا، ثم بدأ بعضهم يقفون من

حولنا ..

سألتى ويليام فى فضول،

.. هل أنت مصرى ؟

.. وهذا واضح ،

من جليد عاد يسألنى،

« هل أنت .. مسلم ؟ »

« نعم »

تبادل نظرات جانبية مع صاحبه .. ماذا هنالك ؟ البريطانيون ليسوا متعصبين دينياً، وحتى لو كانوا بهذا الرجل وثني أصلاً ولا يهتم بالأديان .. ولما هم بها فلا فارق عنده بين المسلم والمسيحي واليهودي والبوذي ..

الآن بدأت أدرك أن جو الحانة يتكهرب .. ماذا قد يحدث بالضبط ؟

حتى الساقى كف عن تقديم الشراب ووقف يراقب الموقف .

قالت لي ماجى همساً :

« ماذا هنالك ؟ ما الخطأ في أن يكون المرء مسلماً ؟ »

« ظننت أن لديك الإجابة .. يبدو أن الدرويديين الجدد يكرهون المسلمين ! »

بعد دقائق قال لي أحد الواقفين، وهو رجل يدين محتقن الوجه متلاحق الأنفاس ممن نطلق عليهم في الطّب (النمط البكويكي) .
نسبة لمستر بكويك في قصة تشارلز ديكنز .

« اسمى مورجان ... هل ترغب في زيارة ستون هنج ؟ »

قلت في لا مبالاة :

« اعتقد أننا سنعود بالقطار بمجرد أن تهدأ الشوارع .. لقد رأيتها عدة مرات من قبل ،

قال في إصرار ،

« سنذهب هناك الليلة .

قالت ماجى في ضيق :

« اود اسفد سيكون الأمر خطيراً ولا يستحق العناء رجال الشرطة في حالة عصبية غير طبيعية .

« نحن قادرون على اخذكما هناك ! »

نهضت في عصبية وقد ادركت ان هناك نوعاً من الصدام في الطريق . كل شيء صار غريباً منذ ذكرت موطنى وديانتي .. ما هذا الاصرار الغريب على زيارة الأثر ؟ قلت في عصبية :

« ونحن واضحان في أننا لم نعد راغبين في ذلك »

هنا رأيتني احديق في مسدس صغير كربه لشكل بحمله ذلك الرجل .. غريب هذا الحماس الذي لم اجدده من قبل كلنا بحب

أن يزور السائحون معالم بلادنا لكن هذا حماس سياحي غير مسبق ..

الأدهى أننى نظرت حولى فوجدت أن أكثر من كانوا فى الحانة يحيطون بنا وهى عيونهم عدااء واضح. وعلى الأقل كان خمسة منهم يلوحون بخناجر أو مدى ... كان الضوء خافتا ما عدا انعكاسا على النصال أو الأسنان أو العيون ...

قال أحدهم،

.. من الخير أن تطيعنا يا رجل .. نحن لا نريد أن تتأذى حياة الأنسة بسبب عنادك،

- ٣ -

الساعات التى تمضيها اسيرا فى حانة بريطانية منخفضة الإضاءة. بينما الشرطة تواجه المتظاهرين فى الخارج ... هذه خبرة ممتعة فعلا.

انت تجلس فى ركن مظلم من الحانة يحيط بك عدد من الفتوات، وجوارك تجلس حبيبتك هادئة الجنان كعادتها. وتظهر امرأة تحمل صحيفة عليها بعض الطعام الساخن .. تضعه أمامكما لكنك لا تطيق أن تحشر الطعام فى فمك ..

جلس الرجل البدين البكويكى الذى عرفت أن اسمه (مورجان) أمامى وأشعل لقاحه تبغ، وقال،

.. سوف تحتاج الى ان تظفر ببعض الطعام .. إن الليلة طويلة ..

ليلة طويلة ؟ ما زلت لا أفهم ما يراد بنا . قلت فى اقتضاب،
.. الجثث لا تجوع ،

اهتز كرشه بضحكة مكتومة وقال،

.. من تحدث عن الجثث هنا ؟

.. مسدس ومدى .. اعتقد اننا نحدث عن مصيبة .. يبدو شبح

ودرويديين جدد . لا يجب أن تكون عبقرياً كي تعرف ما سيحدث ..
إن القرايين البشرية ستعود بقوة كما هو واضح ،

.. قرايين بشرية ؟ .. أنت تشاهد أفلاماً أكثر من اللازم ،
قالت ماجى مفتاة وقد ظلت تضغط على أعصابها طويلاً ،
.. لا تقل لى إنكم تفعلون هذا كله من متعلق الحماس الوطنى ..
لا بد أن يرى السائح المصرى العزيز آثارنا السلطانية العظيمة ..

قال الرجل وهو ينفث سحابة دخان كبيرة ،
.. لا هذا ولا ذاك .. الأمر يقع بين الاثنين .. ليس تضحية
همجية وليس حماساً سياحياً .. فى الواقع سوف تفهمان كل شيء
عندما نصل إلى هناك ،
ونظر فى ساعته وقال ،

.. سوف نتحرك فى الواحدة صباحاً ... أنصحبكما ببعض النوم
حتى ذلك الحين .. هناك غرفة جانبية بها فراش لو أردتما
النوم ،

قالت ماجى فى عناد ،
.. بالطبع لن أغمض جفنى . خصوصاً وأنا محاطة بوجوهكم
الكريهة ،

.. توقعت هذا ..

أما أنا فكنت منهكاً بالفعل من طول هذا اليوم .. الإضاءة الخافتة
والانفعال .. كل هذا جعلنى أسند رأسى إلى ساعدى وأحلم .. أحلم
بأشياء كثيرة جداً .. فى كل مرة كنت أصحو مذعوراً فأذكر
أين أنا ، وأطمئن على أن ماجى سليمة ثم أواصل رحلتى فى عالم
الأحلام .

الليل يقترب ..

عما قريب سوف أعرف ما يريد هؤلاء القوم ... لست مستريحاً
جداً للوقوع فى ايدى وثنيين يريدون ممارسة طقوس عتيقة ..

سمعنا صوتاً .. من الخارج جاء ذلك الصوت الرفيع ،

.. هل حقاً لم تر متظاهرين يا صاحب الحانة ؟

جاء صوت صاحب الحانة ،

.. بالطبع لا يا سيدى الكونستابل ،

لقد جاء رجال الشرطة هنا يفتشون عن هاربين . وهم مستمرين
فى حملة الاعتقال التى بدأت صباحاً . من المنطقي طبعا أن
استسلم لهم .. هذا هو ضمان حياتى الآن ..

صحت فجأة بأعلى صوتى ،

«التجدة... نحن هنا»

كانت سيحة مفاجئة وأتبعها بالدق على المنضدة بكل قوتى .
بينما أطلقت ماجى صرخة رفيعة طويلة، ووقفت على المقعد كأنها
تقود مظاهرة .. كان هذا أقوى مما توقعه أسرونا .

افتحم الشرطى الباب عنوة .. استطعت أن أرى وجهه الطفولى
وملامحه الوداعة . لكنه يمثل السلطة ويمثل التاج البريطانى
بالتأكيد، وكان غير مسلح سوى بهراوة ككل البوليس هنا ... هتف
وهو يرانا :

« كيف بحق السماء ٩٠

لم يكمل العبارة لأن احد اسرينا هوى بمقعد على راسه من
الخلف فسقط على الأرض دون كلمة أخرى . احب الدين يقولون
شيئاً قبل أن يسقطوا .. لكن هذا أسلوب مرعب . وهتفت ماجى فى
هلع :

« أنتم قتلتموه ! ان الاعتداء على رجل شرطة باهظ الثمن ..

شدتها المرأة مكنزة العضلات فاسقطتها فوق المنضدة ثم
واصلت جذبها فسقطت على الأرض ماجى رقيقة جدا ويسهر
كسرهما لو أردت . أدركت من سقطتها وصرخة الألم التى أطلقتها
أنها هشمت عظمة فى ساقها على الأرجح ..

نهضت مغضباً وأنا أسب بالعربية وأعلن، هنا ضغطت ستة أيد
على لترغمنى على الجلوس ، وقال آرثر جليerman وهو يلهث ،
« لا داعى لمزيد من المشاكل .. أنتما سيب ما حل بهذا الشرطى ..
لا أريد المزيد من المحاولات البطولية .

ثم صاح فى الرجال من حوله :

« لا بد من التحرك الآن .. ربما جاء رجال شرطة آخرون ... »

ثم نظر إلى جسد الشرطى الواقع على الأرض وهتف :

« هليات معنا .. لقد صار شاهداً على كل شيء ، ولا نستطيع قتله ،

بسرعة كان هناك من يدفعوننا نحو الباب الخلفى ، وكانت هناك
سيارة (هان) واقفة .. كما كانت هناك ثلاث سيارات بريطانية
صغيرة الحجم .. كانت ماجى تستند إلى كتفى وتواب كالقلق ..
بينما حمل عدد منهم جثة الشرطى أو جسده .. لا أدرى ..

وجدت نفسى مع ماجى فى السيارة (هان) جالسين على الأرض
ومعنا اثنان من الرجال ، وبيننا كان الشرطى هاقد الوعى .. تأكدت
من أنه لم يمت لكنه بالتأكيد مصاب بارتجاج شنيع .. وأدركت أنه
بحاجة ماسة للمستشفى ..

لكنى بالطبع لم أستطع الرؤية جيداً .. فقط لمحات مختلطة

من بين الأضواء المتسللة من النافذة الخلفية من وقت لآخر ..

بعد ربع ساعة تقريباً توقفت السيارة ..

انفتح باب السيارة الـ (فان) وظهر الرجل مورجان .. وصاح ،

.. هيا بنا !

ما زلت لا أفهم .. يحملون جسد الشرطى ويحيطون بى وماجى
التي تتواثب كقلق .. هناك نحو عشرة رجال تقريباً ..

ومن بعيد رأيت الـ (ستون هنج) بشكلها المألوف الرهيب فى
الظلام الذى يبدده ضوء النجوم .. كأنها أشباح من العصر الحديدي
تنتظرننا ..

قالت ماجى همساً :

.. لا أعرف كيف وصلوا إلى هنا .. الشرطة لا تسمح لأحد
بالدخول والطريق مغلق على بعد ميلين .. اعتقد انهم دفعوا رشوة
للشرطة أو أن مسئولاً يتعاون معهم .

.. هلا خرست قليلاً ؟ لا أعتقد أنك فى حالة تسمح بالثرثرة

.. أعتقد أن هذا التواء فى الكاحل لا أكثر .. ساعيش .

إننا نتقدم الآن .

هذه الصحور يمتد عمرها إلى العام ٢٠٠٠ قبل الميلاد .. من

حولها ترى ذلك الخندق الدائرى الذى يفصلها عن باقى معالم
الوادي .. اشكال حجرية غريبة شيدها الإنسان فى هذه العصور
الغابرة .. كأنها حرف لـ (اللاتينى مقلوباً) .. فى البدء كان الخندق
وبه ٥٦ حفرة للدفن فى حفر أوبرى .. ثم ظهرت تلك الصخور
المتراصة فى دائرة مزدوجة . ثم ظهرت تلك الصخور العرضية
التي تربط التكوينات ..

مشهد رهيب فعلاً خاصة فى الليل ..

للحظة الاولى ادركت أن معنا امرأة أخرى ..

امرأة فى الخمسين من العمر مرهقة جداً تتوكأ على مورجان ،
وتحاول بصعوبة أن تلحق بنا .. واضح تماماً أنها مريضة .. إذن
موكبنا فيه ثلاثة مرضى .. الشرطى وماجى وهذه السيدة ..
وقفنا وسط الأحجار المخيفة . فدعانا أرثر إلى الجلوس على
الأرض ...

قال لى وهو يخط أشكالا على القبار :

.. ثلاثون ! ... دائرة أحجار السارسين مكونة من ثلاثين
عموداً .. هناك كذلك ثلاثون حفرة . السارسين نوع من الأحجار
الجيرية التي تجدها فى سهل السليوى .. يستخدم بكثرة
كدراجات سلم لكنه رطب زلق وليس عملياً ..

قالت ماجى وهى تتحسس كاحلها :

.. جميل جدًا .. لكن هذا لا يبرر خطفنا لو أردت رأىي .

قال :

- نحن لم نخطفكما .. اختطفنا رفيقك المسلم .. السبب هو أننا اتفقنا منذ زمن على أن هذه الصخور لها قدرات خاصة لو تعامل معها رجل مسلم . السارسين لفضة مشتقة من لفضة ساراسين . ومعناها القديم هو (المسلم) أو غير المسيحي عامة .. لكننا لم نجرب هذا مع اليهود على كل حال .

قلت له :

.. وما هو دورى ؟ هل يجب أن يلوث دمي صخرة التقدّمات

مثلاً ؟

قال فى جدية :

- لا بد أن شيئاً كهذا كان يدور فى الماضى ، لكننا سنجعلك تقف بين صخور السارسين الثلاثين وتردد بعض العبارات .. هذه العبارات لها خاصية تنشيط قدرة الصخور على الشفاء وأشياء أخرى ..

.. شفاء ؟ شفاء من ؟

.. صديقتك .. الشرطى .. جلاديس ؟

من هى جلاديس ؟

ثم نظرت للخلف قرأت المرأة السقيمة التى جلست على الأرض تراقبنا جوار زوجها .. كانت تنتظر فى توتر نتيجة هذه المحادثة ..

.. هى زوجة مورجان صاحبنا .. سرطان نخاع متقدم . يجب أن نجرب كل شيء .

اذن هم يؤمنون بتطرية قدرة صخور ستون هنج على الشفاء .. لكن أى هراء هذا ؟

قال وعيناه تلمعان :

- للصخور خواص صوتية فريدة .. كانوا يحضرونها من بعيد بسبب قدرتها على إحداث رنين عال ، وكانوا يطلقون عليها (ليثوفون) .. أى الصخور الصوتية .. وهذه الصخور قادرة على الشفاء كما نتصور .

قالت ماجى فى فهم :

.. اذن تم هذا الاختطاف من أجل صديقكم .. كنتم تريدون

التجربة .

.. وهجأة أرسل لنا القدر رجلاً مسلماً. ونحن نفكر في مجموعة أحجار تُنسب إلى المسلمين لسبب لا نعرفه.. لابد أن هذه إشارة واضحة .. سوف يؤدي هو الطقوس،
في غيظ قلت،

.. ومن قال إنني أعرف كيف أؤدي أي طقوس،
.. عليك أن تتعلم بسرعة حتى لا تتأذي صاحبك !

صرت أبعدو كالمهرجين بالعباءة البيضاء التي جعلوني ألبسها فعلاً أبعدو مثل سور الدرويديين التي أراها في الصحف. قدموا لي مجموعة صفحات فيها كلمات بحروف لاتينية .. لم أفهم حرفاً ثم عرفت أنها كتبت بلغة درويدية قديمة .. يمكنني أن أنطقها ولا أفهمها ..

وسط الدائرة الثلاثينية جلست ماجى على الأرض وجوارها المرأة المصابة بالسرطان .. ثم جسد الشرطى الذى يتنفس بصعوبة ... ووقفت أنا .. خارج الدائرة وقف هؤلاء الدرويديون ينتظرون .. للمرة الأولى في حياتي ألعب دور كاهن قديم.. سيكون هذا مسلماً ...

صويت كشافاً صغيراً إلى الأوراق وقررت أن أنهى هذه المهرلة

بسرعة .

بدأت أقرأ بصوت عال ..

هناك بالفعل شيء غريب .. الصدى غير مألوف ويتردد بالاحاح مقلق .. تمثالاً ممتون هي الأقصر .. أطلق عليهما هذا الاسم بسبب صوت الصدى الغريب عند الضجر .. متنتنتنتنتنتنتنتونون .. ممنووووون ..

ذكرى غامضة تلوح لي من بعيد .. الحروف تتراقص على ضوء الكشاف .. لا أرى ما يقع خارج دائرة الضوء المصوب على الأوراق.

بالفعل الصخور تردد كلماتي .. لا شك في هذا ...
هناك حلم مبهم يزورني من وقت لآخر ..
ذكرى لم أعشها قط لكنها حفرت داخلني ..

لو كانت هذه الصخور تمنح الشفاء فهل أشفى أنا نفسي من الألف مرض التي لدى ؟ أم أن الكاهن لا يستفيد من تعاويذه ؟
أقلب الصفحات وأردد الكلمات ..

الصدى غريب . الأحجار التي جاءوا بها منذ قرون عديدة
تردد كلماتي بدورها ..

كانت ماجى تقول لرجال الشرطة ،

.. خطفونا هنا ثم فروا عندما اقتربت سيارا تكم ،

لكنى كنت أدرك أنهم لم يفرؤا لمكان من حولنا ..

لقد فروا عبر الزمن ..

★ ★ ★

قلت لماجى ونحن فى القطار عاندين ،

.. لم يكونوا درويديين جدداً .. كانوا درويديين فقط ،

نظرت لى فى حيرة فقلت ،

.. الستون هنج ودائرة الأحجار الثلاثينية هى بوابة تقود

تبعد آخر .. وهذه البوابة لها خواص فيزيائية غامضة ، قادرة

على الشفاء وقادرة على نقلك لزمان آخر ... أعتقد أن آرثر وويليام

وأخريين جاءوا فعلاً من عصور قديمة ، ومارسوا ما كانوا يمارسونه

من عقائد قديماً .. وكانوا بحاجة للعودة لزمانهم .. لكنهم أدركوا

أن شيئاً ما خطأ .. فلما قابلونى خطر له أن هذه هى الطريقة

المثللى لنجاح الطقوس . لقد ساعدهم الحظ بالعثور على ولربما

كان معنى هذا نجاح الطقوس الأكيد .. وهى الوقت ذاته قرروا أن

يعالجوا امرأة صديقهم الذى لا ينتمى لزمانهم . لقد تم الشفاء ثم

ثم سمعت من بعيد صوت سيارات شرطة . رفعت رأسى فلمحت

الأفق يتوهج بالضوء . هناك سيارات دائية ..

صرخ ويليام ،

« استمر .. أنت قريب من النجاح » ،

أوشكت على الانتهاء من الكلمات التى لا أعرف معناها ..

ثم شعرت بأن عيني تغمضان ... وللحظة شعرت بأننى أعلق

بعيداً . ثم يعد لى وزن ولا ثقل .. هل أموت ؟ .. هل أفقد وعيى ؟

ماذا يحدث ؟ لماذا تحترق هذه الأوراق فى يدي ؟

فتحت عيني بصعوبة ، فادركت أن ماجى مغمضة العينين وكذلك

المرأة جلاديس وكذلك الشرطى . نظرت خارج الدائرة فلم أر

أحدًا من هؤلاء الذين جاءوا معى .. فقط بقى رجلان . وزوج

المرأة واحد منهما ، وكانا ينظران حولهما بحيرة مثلى ..

الفجر قد بدأ ومعه سارت الرؤية ممكنة .. مغاضة بالأزرق لكنها

ممكنة ..

وهى ضوء الفجر أرى رجال الشرطة قادمين وهم يصوبون

كشافاتهم علينا ، وأدرك أن رجل الشرطة يحاول التهوض وأن

ماجى نهضت فعلاً وخطت خطواتين . لقد شفى كاحلها .. أما المرأة

فارتفعت فى حضن زوجها ..

روايات مصرية لل...

فانتازيا

30



مع عبير عبد الرحمن

عادوا لزمئهم قبل أن يجدهم رجال الشرطة.

ابتسمت ماجى ونظرت خارج النافذة .. لا أمل هذا البروفيل
الشائق لها أبداً .. قالت لى،

.. هل صرت تؤمن بالهتهم الوثنية وساوين وكل هذا الهراء ؟

قلت فى غيظ،

.. بالطبع لا .. لكنى أؤمن أن الـ (ستون هنج) ظاهرة طبيعية
غامضة تفتح ثغرة لعالم آخر. لم اعرف بعد سبب ارتباط اسم هذا
الحجر بالمسلمين .. لكنى أعرف ان الكلمات التى رددتها لم تكن
سبب فتح البوابة .. نبرات الصوت وتردها كانت هى السبب .

قالت ماجى،

« ربما تعود يوماً لتكرر التجربة ،

لكن هذا لم يحدث قط ولا اظن أنه سيحدث

تلك هى قصتى التى أذكرها عن رقم ثلاثين . اعتقد انى
أتيتك سؤلك .. ربما تحضرنى قصة أخرى عن رقم ثلاثين . لكن-
كما اعتدنا أن نقول - تلك قصة أخرى.

تمت

- ١ -

يمكننى بسهولة أن أتخيل كل ركن فى المكان قبل أن أراه.

الأثاث الرخيص .. هناك أسر بعينها لديها نفس الأنتريه
حشبي العتيق الذى يتظاهر بأنه روكوكو. ولا يد من قطعة قماش
ممزقة يغطونها بسجادة صلاة. الجدار مطلى بالجير وقد تناثرت
عليه ملمسقات لمطربين وممثلات، مع لمسة ذكورية من أخيها تظهر
فريق الأهلئ ملتفين كالوحوش حول كرة قدم.

الإضاءة ضعيفة غالبًا وتعتمد على مصباح واحد واهن.

هناك جهاز تلفزيون صغير جداً أو - على الأرجح - شاشة كمبيوتر
قديمة تم توصيلها بالجهاز الصينى الذى يجعلها شاشة تلفزيون.
هناك كذلك رف مزدحم بالكتب مثبت للجدار.. رف عبارة عن
قطعة خشب تم العثور عليها عند أسطى إبراهيم النجار، وهو من
صنع لها أداة للتعليق، ثم تم لف السلك حولها لتكون رفًا ..

على هذا الرف حشد من عناوين الكتب .. كلها فى حالة رثه من
فرط القراءة مرة تلو المرة. وسوف تلاحظ أن معظمها روايات
مهترئة الأغلفة .. خليط غريب من روايات دستوفسكى وبلزاك
وتجيب محفوظ وقصص رجل المستحيل وسافارى وقصص ستيفن

زهاجج . صاحب هذه المكتبة عث كتب لا يترك كتابًا فى حاله.

هناك مكتب عتيق متداع فرش بشرشف من الورق المقصوص
بشكل زخرفى ، وعلى المكتب هناك كوب شاي فارغ . وهناك
بقايا شطيرة جبن ... ثم تلك الأقطاب المتشابهة التى تذكرك
بالخوذة أو السيشوار الذى تضعه النساء لتجفيف شعرهن. وهناك
سلك متاكل يتصل بجهاز لاب توب .. واضح تمامًا أن هناك إفراطًا
شديدًا فى الاستعمال .. شهد هذا الكمبيوتر رحلة طويلة منذ كان
عتيقًا يتعامل بنظام الدوس وعلامة المحث، حتى صار يتعامل مع
النوافذ. ثم تبدل إلى لاب توب بعد تلف الكمبيوتر العتيق .. دى
جى ٢ أودى جى ٤ .. لا أعرف ما صار إليه ..

تراها جالسة أمام المفاتيح تدق عليها بأنامل رفيعة يبدو
واضحًا أن صاحبيتها تعمل فى البيت كثيرًا .. ليست فتاة مدللة.
عبير عبد الرحمن .. لم تتغير كثيرًا سوى أن السنوات بدت
واضحة على وجهها نوعًا، وقد غطت شعرها فى حجاب رخيص
الثلث، وملامحها الشاحبة المنهكة .. لا يمكن أن تصفها بأنها
جميلة .. لكنك كذلك لا تجرؤ أن تصفها بالقبح. هناك جاذبية
ما فى هذا الوجه. هالات داكنة تحت العينين. العيان وإستعان
ملينتان يالتساؤل- بسهولة تذكر أنك كان رفيق وأمين اعتاد

أن يكون الضحية لا القاتل، وروحها تستحق لقب (ملكة جمال الأرواح) فعلاً، فهي لا تكذب ولا تحقد .. لكنها كذلك عاجزة تماماً عن مواجهة هذا العالم الخارجى القاسى .

متى جاءت عبير للوجود ؟

لا أذكر .. كان هذا فى التسعينيات .. ربما عام ١٩٩٥ أو عام قبل ذلك أو بعده . عندما بدا أن رفعت إسماعيل قادر على أن يقف على قدميه ويخوض صراعاته الخاصة، خطر لى أن أعيد إحياء حلم قديم كان يزورنى فى طفولتى دوماً، ويحذرنى بلا توقف، أن أستطيع دخول مجلة ميكي لأمرح مع بطوط وعم دهب . وأركب سيارة الأول المضحكة وأدخل بيته ذا الحديقة وصندوق البريد المضحك . رأيت فتاة تعمل فى نادى فيديو قرب بيتنا .. هذه الفتاة كانت تمشى الوقت فى القراءة . تقرأ بأنهم .. تقرأ بتوحش . كان واضحاً أنها فقيرة من ناحية المال والجمال والتعليم، لكن نهمها فى القراءة كان يمنحها عوالم غير محدودة تزورها وهى بعد جالسة فى ذلك المكان الضيق وسط شرائط الفيديو . هكذا ولدت عبير كان مشهداً طريفاً عندما دخلت نادى الفيديو يوماً فوجدت الفتاة تطالع فى نهم عددًا من فانتازيا، وهى بالطبع تجهل أننى كيف لو عرفت أنها هى بطلة الكتيب الذى تطالعه !

فيما بعد تم اتهامى بدسنة من المصادر التى سرقت منها هذه الفكرة، بدءاً بـ (أليس) هى بلاد العجائب وانتهاه بعشرات الأفلام التى لم أرها . لاحظت كذلك ارتباط الاتهامات بأرائى السياسية، عندما أقول كلاماً لا يروق للفريق الفلانى . يكتشف أفراد الفريق فى نفس الأسبوع أن فانتازيا مسروقة !

مطمئناً يمكنك أن تصدق أو لا تصدق أن هذه فكرتى خالصة، وليست سوى حلم طفل تمنى دخول مجلة ميكي . فيما بعد رأيت فيلم (استعادة كلية - ١٩٩٠) لشوارزنجر عن قصة قصيرة لعبقري الخيال العلمى (فيليب ديك) اسمها (يمكننا تذكر ذلك لك بسعر الجملة !). حيث يقوم الكمبيوتر بخلق الحلم الخاص بك .. الفكرة قريبة جداً، ولكنى رأيتها متأخراً بعد صدور فانتازيا بأعوام . فى فيلم (زهرة القاهرة القرمزية) لـ (ودى أئين) يخرج بطل الفيلم من الشاشة ليعيش مع البطلة فى عالمنا ... لا شك أن الفكرة تكررت كثيراً، لكن أؤكد لك أننى لم أسرقها، كما أننى لا أتهمهم بأنهم سرقوها منى !

عندما قرأ الأستاذ حمدي الكتيب الأول راقت له الفكرة، وخصوصاً عبارة الغلاف الأخير، الفرار .. الفرار .. كان يهتم بألف شيء فى الوقت نفسه، فلا تعرف إن كان يصغى لك أم لا .

تكرر كلامك عدة مرات ولا تفهم إن كان قد وافق أم هو معترض..
لذا اندهشت عندما وجدت أنه طبع العدد الأول بسرعة قياسية.
لقد صرت صاحب سلسلتين ١ بل ثلاث؛ لأن روايات عالمية للجيب
سارت لي في نفس الوقت تقريباً .

الدرس الثاني الذي تعلمته مع الأستاذ حمدي مصطفى هو أن
العدد الثاني في أى سلسلة لا يعجبه أبداً ١ حدث هذا مع فانتازيا
وسافاري وما وراء الطبيعة ..

هكذا خرجت عبير للوجود، وكان لقصصها طابع فريد، ربما
هي السلسلة الأكثر ميلاً للتثقيف، وقد أحبها القراء المولعون
بالخيال، وأحبها القراء العمليون الذين يريدون معلومة في كل
شيء يقرءون ١، لكن القراء الذين يحبون الاندماج في القصة
وعدم تحطيم الحائط الرابع، لم يحبوها قط .

فانتازيا مليئة بالتغريب والبريختية، حيث لا أكف عن تذكير
القارئ أن هذا كله حلم .. هذا كله ليس حقيقياً ... لعل هذا نتيجة
لتأخرى في فترة من حياتي بعالم برتولت بريخت . هذا أسلوب
يحبط القراء الذين يعيشون الغوص في القصة . هؤلاء الذين
يلومون بطل القصة على تصرف أحق ولا يلومون المؤلف نفسه ١.
لهذا ظلت سلسلة فانتازيا ذات خصوصية معينة ، ولا تناسب

الجميع . ولوطبقت عليها قواعد الرواية فلن تنطبق، لأن القصة
أقرب إلى مقال نقدي طويل منها إلى قصة . هناك قصص تقوم
فيها عبير بتصميم القصة بنفسها أمامك ؛ مثل (البطل ذو الألف
وجه) و(قصة كل ليلة) .

وأنت يا عبير ..

ماذا يمثل رقم ثلاثين بالنسبة لك ؟

فكرت عبير قليلاً ورشفت رشقة من كوب الشاي ، ثم أدركت أنه
فارغ، فضحكت في حرج وقالت ،

- ثلاثون ؟ لا أدري .. كان هذا منذ زمن عندما تجاوزت سن
الثلاثين .. ليس هناك شيء معين ،

- .. ربما يذكرك بثلاثين قطعة من الفضة التي تقاضاها يهوذا
الإسخرىوطى ؟

- .. لا أعرف .. لا أرى في فانتازيا سوى ما قرأت منه فقط ،

- «وماذا قرأت عن ثلاثين ؟»

فكرت من جديد ثم قالت في خبث،

- « سوف يوحى لي هذا الكتيب بأفكار حول الثلاثين .. أقصد

الكتيب الذى تكتبه الآن)

هذه متاهة كريتانبة أخرى .. أنا أريد معرفة معنى ثلاثين لها .
وهى لن تعيش مغامرة مع رقم ثلاثين إلا بعد قراءة الكتيب الذى
يتحدث عن رقم ثلاثين بالنسبة لها !

مددت يدي إلى الرف وانتقيت كتاباً سميكا اسمه ،

الحروب الأوروبية ،

رحت أقلب الكتاب حتى وجدت الفهرس ، ثم وضعته أمامها
وقلت ،

.. سوف تجدين هنا حرب الثلاثين سنة .. أشرس حرب عرفتها
أوروبا قبل الحربين العالميتين .. لا شك أنها قادرة على متحك
بعض الأفكار ..

راحت تقلب الصفحات ثم هزت رأسها ..

قالت لى ،

.. سوف أطلع الجزء الخاص بالحرب ، ثم أثبت الأقطاب
وأدخل عالم الحلم . ليس هناك ما يضمن أن أرى هذه الحرب فى
حلمى . شريف كان قادراً على تحليل الحلم ، أما أنا فلا .. الأمور
عشوائية ،

قلت لها ،

.. سأقيل النتيجة ،

وجلس فى ركن الحجرة الكنيبة ورحت أطلع رواية
لـ (مارسيل بروست) .. بعد دقائق سمعت صوت هدير الجهاز .
رفعت رأسى فوجدت أنها ثبتت الأقطاب على رأسها واغمضت
عينها .. لم تودعنى أو تقل شيئاً .. يبدو أنها دخلت عالم الحلم
فعلاً .. لقد انتهت من قراءة هذا الفصل وهو ليس كبيراً على كل
حال . سوف انتظر حتى تفيق كي أعرف حلمها .

يمكننى تخيل ما سيحدث .. السفر لفانتازيا .. القطار المضحك ..
المرشد السمج ... هذه طقوس إجبارية ..

ليس هناك شيء أفعله حالياً سوى الاستمرار فى القراءة . سوف
تعود لعالمنا وتحكى لى . فيما مضى كان شريف يملك القدرة على
متابعة الحلم ، لكن أين شريف الآن ؟ كان عبقرياً وما زال ..

- ٢ -

جذب المرشد الحبل فتوقف القططار المضحك .. القططار الملون
الذى يذكرك بقطارات الملاهى . لولا الملامة تخيلته بلسان
وعينين ضاحكتين مثل الرسوم المتحركة ..

قال لها المرشد وهو يترجل ويساعدها على النزول:

« أنت فى باهاريما .. مرحبًا بك »

أدركت عندما ترجلت من القططار أنها تلبس ميدعة وحذاء
خشبيًا ومنديل رأس .. تبدو قريبة جدًا من جو القصص، حتى
كانها فى عالم الأخوين جريم ..

قالت له:

« لحظة .. أنا لم أطلب دخول عالم الأخوين جريم »

« ومن قال إنك فيه ؟ .. هذا العالم يختلف عن عالم جريم فى
كل شيء .. بل هو النقيض نفسه »

« لكنها ذات الفترة ؟ »

هز رأسه فى ملل وقال:

« كل الفلاحات الباهاريات يتشابهن لو أردت رأيي .. »

رفعت رأسها لتنظر من حولها ..

كان المشهد شنيعًا .. هذا سهل مترام .. لكنه لم يكن مزروعًا
بالعشب .. كان مزروعًا بالجلث والأطراف المبتورة .. رائحة
البارود تفعم الجو وهناك دخان يغطى كل شيء تقريبًا . يبدو أن
هناك مدافع خلف الأفق ترمى حمولتها القاتلة فترتج الأرض ...
يبدو أن هناك جنودًا كذلك ..

ومن بعيد رأت فرقة خيالة تركض وهم يطلقون الرصاص
بلا توقف، من بنادق عتيقة مما يحشى مرة واحدة مع كل طلقة.

سعد المرشد للقططار وقال:

« هيا .. أتمنى لك التوفيق ! »

صرخت فى دُعر:

« لحظة .. ! اريد خلفية ما . لا أعرف أين أنا .. هل ذهبت
لجهنم ؟ »

أخرج القلم الرنبركى وراح يضغط على قمته فى حركة عصبية.
وقال:

« هذه هى حرب الثلاثين عامًا التى وقعت فى أوروبا من عام

١٦١٨ إلى ١٦٤٨ .. سوف تلاحظين ظاهرة مهمة هي أن هذه الحرب دامت ثلاثين عامًا ... صدفة غريبة أن يطلق على حرب دامت ثلاثين عامًا اسم (حرب الثلاثين عامًا) .

« هل تمزح ؟ »

« ليس بالضبط .. هناك حرب يطلقون عليها اسم (حرب المئة عام) استمرت من عام ١٣٣٧ حتى عام ١٤٥٣ . »

« ولماذا قامت حرب الثلاثين عامًا ؟ »

« مثل الحروب الصليبية .. مبررات دينية ، لكنها هي الحقيقة صراع على النفوذ لا أكثر .. هذه من حروب الكاثوليك والبروتستانت الشهيرة .. كل تاريخ أوروبا تقريبًا حروب بين الكاثوليك والبروتستانت . وقد كانت حربًا كارثية أدت لفظائع لا تنتهي وأوبئة ومجاعات .. لقد تلدّى تعداد ألمانيا من كثرة من ماتوا فيها .. »

« وأى عام هذا ؟ »

قال محدّثًا بإصبعه ،

« العام ١٦٢٩ .. هذا تاريخ مهم جدًا وسوف تعرفين السبب

حالا ..

نظرت للسهل من حولها وقالت ،

« لا أعتقد أنني سأعيش طويلا .. سوف تهوى على قنبلة حالا ..

لا يمكن تجاوز هذا السهل .

لكنه كان قد جلس في مقعده ، وأعطى الإشارة ..

قطار فانتازيا ينطلق بسرعة عبر السهل وهي تجرى وراءه وتصيح . مذعورة فعلاً تسعل بسبب الدخان الذي يملأ الجو من حولها .. هناك أكواخ محترقة وجنود في الخنادق ينزفون طالبيين جرعة ماء . توقفاااااااا ... توقفاااااااا أحرق تبا لك !

إن الحرب لجحيم . والأسوأ أن تجد نفسك وسعها لأن قطارك قد تخلى عنها ..

نظرت للخلف فرأت ذلك الفارس ينطلق بجواده نحوها وهو يلوح بسيف بثار .. له شارب جرمانى كح يتصل بسالفه كما كانت ترى في كتب التاريخ .. يعتمر قبعة كبيرة تذكرها بصور بلاط لويس السادس عشر ، ويحمل على ظهره بندقية . لكنه كذلك يستعمل السيف ..

سوف يقطع رقبتها او يحفظها .. لا يوجد خيار ثالث . لا بدو ودودا جدا .. انطلقت تجرى .. وتنب فوق الخنادق غير هائلة الى

أين تذهب. هذا سهل .. لا توجد مخابئ ..

الفارس يتكلم بلغة غريبة لا تعرفها .. قريبة جداً من الألمانية لكنها ليست ألمانية. يقول شيئاً من قبيل،
«توقفي يا امرأة .. أنت لى!»

سقطت على جانب الخندق والتوى كاحلها، لكنها كانت تعرف أنه لن يفوز بها .. سيتوقف قلبها ذعراً قبل أن يمسيها ..

وهجأة برزت ذراع من الخندق ووثب رجل ليجر الفارس من فوق سهوة حصانه . سقط الفارس المخيف في الخندق . فحاول أن يستخدم سيفه لكن المهاجم في الخندق كان قوياً وكان يملك عنصر المبادأة . سرعان ما أمسك بساعد الفارس ليعطل سيفه ثم هوى بقبضته على وجهه . هوى عدة مرات إلى أن همدت طاقة الفارس وغاب عن الوعي - انتزع السيف من يده وعرسه بمجمع قبضتيه في صدره ..

وقف يلهث مراقباً الجثة التي اضافها للمقابر . يبرز السيف من صدرها كأنه علم غرسه مستكشف في ارض جديدة .

كان منقذها فتى وسيماً اشقر الشعر. لوحت الشمس بشرته وهناك ندية طويلة تحت عينه اليسرى . لم يكن بعمير قبيح.

وكان له شعر بني طويل يغطى كتفيه ..

لم تهرب .. وقفت تنتظر لمنقذها لاهنة ..

قال لها في خشونة بألمانية واضحة،

« ماذا تفعلين هنا يا حمقاء ؟ هذا السهل ليس مكاناً للنساء ..

ليس مكاناً للرجال كذلك.. بل هو مكان للموتى،

كادت تشرح له قصة المرشد الهارب والقطار لكنه لن يفهم ..

قال لها وهو يشب من الخندق،

« تعالى .. سوف أعيذك لبيتك »

كان الحصان الذي سقط صاحبه يقف بعيداً وهو يضرب الأرض بحافره في غضب وتوتر. فاقترب منه وريت على عنقه ومنخره، ثم ساعدها على الصعود لظهره وصعد بعدها، ليمسك بلجام الحصان القلق .. لكنه كان فارساً واثقاً كما هو واضح ..

« من أين أنت ؟ »

« من فورسبيرج »

لم تكن تعرف الاسم لكنها وجدته على لسانها كالعادة .. هذه البلدة قريبة من ماينتز وهاكنفورت ! قال لها،

.. تحت إمارة فيليب أدولف .. هيا بنا

وانطلق الحصان يركض وسط السهل الدامى . ويثب فوق الجثث .. أكثر من مرة صفر الرصاص جوار ادنها وفي مرة أخرى هوت قذيفة مدفع امامها هدوى انفجار هائل جعل الحصان يقف على قائميه الخلفيتين. لكنها تمسكت بفارسها بقوة. وهو يمسك بالذمام بقوة .. وسرعان ما عاد الحصان يركض .

تري النهر من بعيد وتدرى أنه نهر ماين . يبدو انه بقص بالجثث الممزقة وقد صار ماؤه اقرب للدم ..

بعد السهل والنهر هناك دغل .

بعد الدغل هناك مجموعة من الأكواخ ..

أكواخ فقيرة جداً من الخشب وقد غطيت اسقفها باعصان الشجر. هناك فى المركز وعاء يلقى ما فيه من طعام. وامراء مسنة بثياب العصر تقف جوار الرجل ..

هناك أطفال يلعبون هنا وهناك لكنهم توقفوا لدى رؤية الجواد المظلم وفارسه الوسيم الذى يركب خلفه فلاحه . وهرعت امرأة فى منتصف العمر خارجة من كوخ. لتحتضن ساق عيبر التى ما زالت على صهوة الجواد :

.. هانا ! .. شكرا للرب !

بدأ عدد الواقفين يتزايد .. وظهر فلاح له شارب كث وقال :
.. فكرة حمقاء هي أن تنهبي كل هذه المسافة بحثاً عن كرب .

قالت عيبر التى عرفت أن اسمها هانا :

.. الأطفال يموتون جوعاً يا عماء ،

قالت السيدة التى بدا واضحاً أنها الأم :

.. لن تجدى الكرب هناك .. ليس عبر السهل سوى الموت والدمار .. أنت تصرهت بحماقة. وقد شاء الرب ألا أفقدك .. من هو هذا الفارس الوسيم ؟

وثب الفارس برشاقة مترجلاً. ثم وضع كفيه متقاطعتين لتبهمت عيبر فوقهما كأنهما جزء من السرج. وقال :

.. أنا ضابط فى الجيش رأى ابنتكم موشكة على الهلاك .

ترجلت عيبر فى مرح واحتضنت أمها. وفكرت أن تدعوه للغداء لكن أى غداء ؟ هذا القدر فارغ . هناك قصة سمعتها فى طفولتها عن أم راحت تطفى الحجارة لأطفالها حتى يخلوا على أهل إلى أن

يغلبهم النوم .. ثم رآها عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فأطعمها وأتقنها هي وأطفالها. لا تعرف مدى دقة هذه القصة. لكن فكرة الأطفال الذين ينتظرون جوار إناء فارغ ولا يعرفون أنه فارغ تحطم أعصابها ..

كان الرجل ذكيًا فقال على الفور أنه شعبان، ثم اتجه لسرج الحصان وراح يعبث فيه .. صاح في مرج،

.. لقد كان هذا الفارس الذى قتلناه أكلًا .. معه خبز وجبن،

ثم انتزع الخراج وألقى به لعبير، ولوح بيده مودعًا ..

هتفت عبير،

.. هل سراك ثانية؟

قال في مرج،

.. لو لم يطر رأسى بطلقة مدفع أو نصل سيف، سأعود

بالتأكيد،

ووثب إلى ظهر الحصان وركل خاصرتيه يكبيهه فانطلق

مبتعدًا ..

وقفت تراقبه بينما التفت حولها أفراد الأسرة .. كانوا في حال

سيئة جدًا ممزق الثياب يبدو عليهم السقم والجوع. هذه الحروب اللعينة تقضى على المدنيين تمامًا ..

وجدت فتاة رقيقة تهرع نحوها فتعانقها .. بالطبع من الوارد أن تكون رقيقة، ولكنها متسخة الوجه قذرة الثياب جدًا... كانت في نفس عمرها.

.. هانا .. عدينى ألا تكررى هذا الجنون ؟

قالت الأم الدامعة،

.. أختك بخير يا يولاندا .. لا تخافى .. أنقذها هذا الفارس

الشهم،

ثم نظرت للخراج الذى جاء به وأعلنت أنهم سيتناولون عشاء

ممتازًا من الخبز والجبن. تبًا .. لم تكن عبير تحب الخبز والجبن،

لكن من الواضح أن العثور على طعام فى حرب الثلاثين عامًا صعب

جدًا ..

- ٣ -

أسرة فلاحين بسيطة تقيم في فورتسبورج-

نوعية الأسر التي تصير وقودًا لنيران الحروب .. لا ناقة لها ولا جمل، لكنها تتحمل .. إنه العام ١٦٢٩ أى أن أحد عشر عامًا قد مر من هذه الحرب اللعينة الخالية من المبررات.

هناك الأب الذى يحاول جاهدًا عبور محيط الحياة النادر بأسرته. عنده فتاتان جميلتان وزوجة لا بأس بها. وهذه مصيبة في زمن الحرب .. وعنده طفلان وهذه كارثة في زمن المجاعات هذا ..

لكنهم يعتمدون على قوة وسلطان الأمير فيليب أدولف فون أربيرج .. الحاكم القوي للمقاطعة. الرجل الذى يصد عنهم الأعداء وهجمات السويديين ..

هكذا تمر الأعوام .. صراع مزمن مع الجوع .. بحث عن البطاطس وسط الأعشاب .. مقامرات البحث عن كرتب كالتى كادت تودى بها ... محاولة استياد طائر الطهيوج .. لقمة هنا أو هناك محاولة سيد سمكة من نهر الماين ..

ومن حين لآخر يرون جيشًا ذاهبًا للحرب .. وبعدها يابا يرونه

عائداً محملاً بجثث قتلاه ..

أحبت عبير أختها الرقيقة يولاندا. كانت فتاة كأنها خرجت من قصص الأطفال الخيالية أو قصص (جاك). عيناان واسعتان صادقتان محبتان للحياة ..

كانت كذلك ذات عقل لا يكف عن العمل برغم أنها غير متعلمة.

ذات يوم سقط جار لهم مريضًا بالتيقوس، فأصرت على أن تذهب لتمرضه دون علم الأم .. وظلت ترعاه عدة أيام وتسقيه مشروبات تعلمت تركيبها من أنجلينا العجوز. وصنعتها بنفسها حتى استطاع أن يقف على قدميه.

والغريب أنها لم تكن تفتخر أبدًا بما تفعله.

ذات يوم جلست تخطط قطعًا من القماش معا في شكل خيمة. ثم سكبت عليها الشمع الذائب ... وقامت بخياطتها من أسفل بطريقة خاصة ..

ربطت القماش في سلة ووضعت في السلة إناء من الفخار. ووضعت عليه بعض الأعشاب لتحترق. رأت عبير الهواء الساخن يتصاعد ليملأ الخيمة القماشية. ولحظة بدأت السلة ترتفع

لقد توصلت لعمل منطاد صغير ..

هتفت عبير،

.. أنت عبقريّة،

وراحت تتواذب كالطفل .. أطفال القرية كذلك رأوا المشهد
هركضوا سائحين وراحوا يتواشبون كالقردة ... هيه هيه ! ...
شعور من يرى منطادًا لأول مرة في حياته في عصر بلا قراءة ولا
تلفزيون ولا إنترنت ..

جاءت الأم تراقب المشهد، ثم قالت ليولاندا،

.. لا تكررى هذه الأفعال ثانية !،

فظفرت لها عبير في دهشة،

.. لم ؟ من حقها الحصول على بعض الترفيه في زمن أسود

كهذا ..

قالت الأم في حزم،

.. قلت لك ألا تفعلنى هذا .. أبدًا،

ثم استدارت في حزم وعيناها تشعان نارا ... ونظرت ليولاندا

لمبير في دهشة وهزت كتفها .. لن نفهم هؤلاء الكبار أبدًا ..

★ ★ ★

الحقيقة أن يولاندا الحلوة لم تكن تهمد أبدًا، ولم يكف عقلها
عن التفكير ..

ذات ليلة أيقظت عبير من النوم الصعب على الأرض وقالت
لها:

.. سوف أريك شيئًا مبهّرًا ..

فركت عبير عينيها في ملل وإرهاق .. لا يوجد شيء مبهّر في
العالم لا ينتظر حتى الصباح، لكن يولاندا كانت مصرة .. هكذا
نهضت عبير وتساءلت وهي تتأهب،

.. أين ؟

.. في المستنقع على حافة الغابة !

.. سيكون هذا خطرًا .. ليس في ساعة كهذه ..

.. سوف نرحف زحفًا ..

هكذا زحفت الفتاتان مفادرتين الكوخ، مطمئنتين إلى نوم الأب
والأم والإخوة . هناك كانت النار تتوهج في الأفق .. معركة عنيفة
دارت هنا عصرًا وما زالت نيرانها مشتعلة . يمكنك لو أصححت السمع
أن تسمع أنين الجرحى . سهيل حسان نهضت قدمه ..

لكنهما تذهبان إلى المستنقع البعيد النائم تحت ضوء النجوم ..

وقفتا هناك ترمقان المياه المظلمة، ثم صاحبت عبيرا:

.. ما هذا؟

كانت هناك شعلة زرقاء غريبة تتحرك فوق مياه المستنقع بعيداً. الشعلة الفاضة التي أهلكت مستكشفين كثيرين لاحقوها عبر التاريخ. يمشون وراءها مفتونين فيقوسون في المستنقع للأبد ..

قالت يولاندا:

.. انجلينا العجوز تعرف كل شيء... قالت لي إنها أرواح الموتى التي تخرج من الأجساد قبل الصعود للسماء .

كان المشهد يثير القشعريرة، لكن عبيرا تعرف الكثير طبعا وتعرف أن هذه ظاهرة فيزيائية معروفة اسمها وهج المستنقعات أو (النار الغبية ignis fatty) بسبب احتراق غازات الميثان والغازات، لكنها هنا كانت فلاحه شابة ترى هذا المشهد للمرة الأولى .. وشعرت بقشعريرة ..

.. دعينا نرجع ،

لكن يولاندا الظالمة للمعرفة ظلت تنتظر في انبهار. تشعر أن هذا اكتشافها الخاص ..

هنا سمعت الفتاتان صوتاً خشناً قوشتا في الهواء مترين .. ونظرتا للخلف فرأتا أنه النجار المسن بيتر .. رجل ثمل لا خطر منه، ومن الواضح أنه جاء هنا ليتبول ..

قال لهما بعد ما سعل وبدأ التبول فعلاً قبل أن تديرهما وجهيهما، .. أيتها الشقيقتان .. عودا للبيت حالا .. هذا مكان خطر ..

لم تحتج الفتاتان لأن يطلب هذا لأنهما انطلقتا عائدتين إلى البيت. لقد رأيتا ما يكفي .. كان قلباهما يتواشيان من الانفعال، لكن على باب الكوخ صار الرعب مزاحاً وضحكات مليئة بالدلال ... وعندما نامت عبيرا كانت تشعر بسعادة لأن يولاندا أخذتها ... كل شيء مع يولاندا جميل طريف .. لا يمكن أن تشعر بالملل لحظة ..

★ ★ ★

بعد أسبوع حدث شيء مروع ..

جاء جنود اقتحموا البيت .. جنود الأمير هيليم ادولف هون أريبرج .. فتحوا الباب الخشبي عنوة، فلما جاء الأب ملتجئاً يسأل

عما هنالك تلقى ضربة على صدره، وقال قائدهم:

« يولاندا .. اينتك .. أين هي ؟ »

من مكان في الكوخ الضيق ظهرت يولاندا خائفة متعمة .. وقبل أن يفهم أحد ما حدث هوى على رأسها دبشك البندقية، ثم ظهرت الحبال لتقيدها، بينما عبير تصرخ في هستيريا . والام تتساءل في بلاهة:

« ماذا حدث ؟ »

والاب حاول أن يقاوم فتلقى ضربة بمؤخرة بندقية أخرى، فسقط أرضاً ..

ظهر من بين الجنود واحد متأنق يزين قبعته بالريش وقد بدا عليه القروح، ونفش صدره وقال،

« لدينا أوامر من الأمير الأسقف فيليب أدولف فون أريبيرج باعتقال هذه الساحرة ! »

« ساحرة ؟ »

قال في غرور:

« يمكنكم سماع كل شيء في المحاكمة »

وانصرف الجنود وهم يحيطون بيولاندا الرقيقة المذعورة التي لا تصدق ما يحدث ..

لا داعي طبعاً لوصف الصراخ ولا زعر الأطفال وبكاء الأم .. هذه مشاهد تحطم الأعصاب .

المحاكمة كانت مهزلة ..

لم يسمح لها بالكلام أو قول شيء .. كانت منسدة خشبية قد نصبت جوار نهر الماين جلس عليها عدد من الضباط ورجال الدين مكفهرى الوجه .. أمامهم أوراق ..

أدركت عبير في هلع أن الأمر لا يتعلق باختها .. بل هناك عشرات .. ربما مئات الأشخاص المتهمين بالسحر ..

قال المدعى العام دون أن ينظر لوجه يولاندا الدامع المليء بالكدمات:

« يولاندا هنسنج .. تمارس السحر منذ عام .. اخترعت أشياء شيطانية تجعل القماش يطير في السماء .. وقامت بتمريض مريض تيفوس دون أن تخاف وسقته مشروبات شيطانية فشفى .. مع أن مريض التيفوس لا يشفى .. ثم شوهدت في المستنقعات فيلاً تجمع أعشاباً توصفاتها السحرية . بيتر النجار شهد بذلك ... »

لم يطلب رأيتها ولا دفاعها عن نفسها ..

« العقوبة هي الحرق !! »

سقطت عبير مفشياً عليها وكذا فعلت الأم ..

الحقيقة أن هذا هو عصر حرق الساحرات الذى صاحب أعوام حرب الثلاثين عاماً .. كانت الكوارث والأوبئة فى كل مكان .. وكذلك المجاعات، لذا افترض الناس أن هذه كلها أعمال سحر .. (٥)

كل واحد كان يبلغ سن جيرانه .. صيد الساحرات صار هواية ..

بلغت الموجة الذروة عام ١٦٢٩ وفى هذا الإقليم بالذات، فورتسبيرج .. الأمير الأسقف فيليب أدولف فون أربيرج كان راضياً فى تدعيم سلطته فى هذه الأصقاع وإظهار حزم الكنيسة الكاثوليكية. هكذا تم حرق ٢١٩ شخصاً فى فورتسبيرج فى هذا العام .. وتم حرق ٩٠٠ شخص آخر فى أرجاء البلاد ..

فى مكان آخر من بافاريا تم حرق ٦٠٠ ساحرة .. وفى مكان آخر تم حرق ٣٦٣ ..

(*) واضح طبعا أن المعلومات حقيقية ...

لقد صار الحرق موضة فى كل أوروبا ..

فيما بعد كتب المفكر الدينى (هرديك سبى) كتاباً ينتقد فيه هذه المحاكمات وهذا الحرق، وهو كتاب (كوشيو كرىمنا ليس) .. هذا الكتاب استطاع أن يقضى على ظاهرة حرق الساحرات فى أوروبا كلها.

كانت حماقة عامة وجنوناً لا يمكن وصفه ..

لكن ككل الضعفاء كان على يولاندا أن تدفع ثمن هذا الجنون ..

- ٤ -

لو لم تكن من الطراز الذى يحب حرق الساحرات، فأنا لا أنصحك
أن ترى مشهد حرق الساحرات !

هذا يوم رهيب . الكثير من الصراخ والمويل، وهناك نحو مئة
عمود منتصب .. كل عمود ينتثر القش تحته وهناك رجل أو فتاة
مقيدة إلى العمود وهو أو هي تصرخ ..

لا جدوى .. لا سبيل للرحمة ... هذا يوم قيامة مصفر يصنعه
الإنسان لأخيه الإنسان.

الجلاد يحمل شعلة ويمشى فى وقار وتؤدة من عمود لآخر ..
ينظر فى تشف للضحية ثم يهوى ليشعل القش ... يرتفع الدخان
والنار.. يلقي نظرة اطمئنان ثم ينتقل للعمود آخر ..

يقف الأمير الأسقف هيليب أدولف فون أربيرج فى وقار حاملاً
صولجانه يراقب هذه المذبحة .. لقد تمت كلمة الرب .

لم تكن عبيد تعرف أين يولاندا .. بالتأكيد سوف ينقذها الفارس
الأشقر الوسيم .. سيظهر فى آخر لحظة ويمزق الحبال ويحملها
على فرسه ..

لكن أين هو وسط هذا الجحيم ؟

يجب أن تركض وسط هذه الأعمدة بحثاً عنها، لكن ما
الجدوى ؟ .. ليس مشهد احتراق أختها مما يشاهد ..

تشم رائحة الشياطين وترى الدخان يرتفع لعنان السماء
فتبكي ..

تسقط مقشياً عليها ثم تصحو من جديد وتصرخ ..

تلك أعوام رهيبة بلا شك .. سوف يذكر الناس حرب الثلاثين
عاماً طويلاً ، لكنهم سيذكرون مسلسل حرق الساحرات بالذات.
الجنون الذى عم يا هاريا فجعل الجار يسلم جاره ..

لا هرسان ..

كل المقيدىن يحترقووووووووون !!!

هرعت عبيد هاربة حتى بلغت النهر ..

ارتمت على الضفة تبكى وتنشج .. واستدارت للخلف فرأت
الدخان يتصاعد فى خلد الأفق كله. لا بد أن النار أحرقت
الجميع ..

يولاندا الذكية البارة قد دفعت ثمن ذكائها .. فى عصر صيد
الساحرات يجب أن تكون حذراً جداً ! فى عصر محاكم التفتيش
كانت تكفى ندية على جسد المرأة كي تلهم بأنها تنام مع الشيطان،

عندما جاء المساء هتحت عبير عينيها ..

رائحة الشياطين فى الجو تشى بأن اليوم كان صاحبًا فعلاً ، كما تقول بوضوح أن هذا كله لم يكن كابوسًا . فى مكان ما من السهل تقف يولاند مربوطة إلى عمود .. متحمة ...

قالت العجوز ،

« أعرف ما تشعرون به »

« مستحيل أن تعرفى ! »

بعد صمت قالت العجوز ،

« أنا أعرف أنك ترغبين فى الانتقام .. لقد تعذبت هذه البائسة كثيرًا وكانت بريئة تمامًا لكنهم أساءوا فهم براءتها ... لهذا أريد الانتقام .. سوف أمنحك القدرة على الانتقام »

قالت عبير وهى ترتجف ،

« الأمير فيليب أدولف فون أربيرج هى قلعتة .. لا أحد يقدر على أن يمسه أو يذو منه ،

« السحر يقدر »

نظرت لها عبير فى حيرة فقالت ،

وقد رأينا فى قصة أحذب التوتردام كيف كادت أزميرالدا تحرق لأن لديها جديًا .

هنا سمعت عبير صوتًا وراءها .. هل هو الفارس الوسيم ؟ تأخر جدًا ...

نظرت للخلف فوجدت العجوز أنجلينا ..

نهضت لترتقى فى حضنها . السيدة العجوز الطيبة التى لها رائحة (الهيل) أو الحميهان .. أناملها المعروقة تعبت فى خصلات شعرها ..

« لا تبكى يا صغيرة ... أنا مثلك كنت أحب يولاند كابنتى ،

وشعرت بها تجرها من يدها ..

لا تدرى متى ولا كيف دخلت كوخ العجوز .. الكوخ القذر الذى تعبت فيه ثلاث دجاجات ، وهناك قدر على الموقد .. وثمة قط أسود ينظر لها فى فضول ..

أرقدتها العجوز على الأرض .. كانت عبير محمومة تهذى ، وفى لحظات كانت ترى يولاندا خارجة من النار وهى تضحك .. أو ترى أنهم يحرقونها هى ..

كانت العجوز تضع كمادات على جبينها وتسقيها أشياء ..

« ليس قبل أن يكتمل الانتقام ،

كانت دراسة مضنية فعلاً ...

كان على عبير أن تميز مجموعات كبيرة من الأعشاب، وأن تجيد أكثر من خلطة سرية .. كما أنها كانت تذهب للسوق ليلاً حيث تجمع بقايا الجنود الذين هلكوا في الحرب .. هذه أجزاء مفيدة للتعاون السحرية كما تعلم ..

في الليل كانت المراتان تسهران وتطبخ العجوز على الموقد أكثر من مزيج وتحاول تعليم عبير ..

تعليم قاس بشع، لكن (عبير) كانت في أمس الحاجة للانتقام كي تستعيد توازنها النفسي ..

علمتها الساحرة كيف تمسك بيد المجد وتشعل فيها شمعة، ثم تتقدم لتعبر أمام الحراس فلا يرونها لأنها صارت خفية .. يد المجد هي كف سجين ميت عولجت بطرق معينة .. راجع قصص الشيخ رفعت إسماعيل لتتذكر هذه الوصفة ..

علمتها كيف تمد يدها في صدر من تريد فتنزعه قلبه بمخالبها ...

علمتها كيف تردد كلمات هيحترق من تريد الخلاص منه .

« ألم يخاطر ببالك قط أننى ساحرة ؟ ساحرة حقيقية .. لست بريئة مثل أختك ... ولأننى ساحرة فقد استطعت خداع الجميع .. لم يشك في أحد ،

نهضت عبير وهي ترتجف، فقالت أنجلينا ،

« سوف أمنحك فرصة الانتقام .. لكن عليك أن تتعلمي .. يجب أن تعرفي بعض ما أعرفه ،

هذه كانت البداية ...

★ ★ ★

يجب أن تستحم بمزيج الأعشاب الذي صنعه لها الساحرة .. مزيج غريب الرائحة لا تريد عبير أن تتخيل ما فيه من مكونات .. لا بد أن الضفادع والخفافيش وتربة الموتى قد صارت نادرة في السوق ...

لكنها فعلت ما طلبته منها المرأة .. وقفت تسكب السائل على جسدها بينما العجوز تدور حولها مرددة كلمات غير مفهومة ..

« أنت الآن متبعة .. أقوى من الموت ذاته ... فقط سوف تزول التعويذة يوماً فتعودين لتكوني هانية،

« ومتى تزول ؟ »

علمتها صنع الدمى وكيف تخترقها بإبرة لتمزق صاحب
الدمية ..

كانت عبير تعرف أن السحر كفر .. لكنها كانت في فانتازيا حيث
لا تملك خياراتها .. تتصرف كما في الحلم فلا تقدر على السيطرة
على كل التفاصيل ..

في النهاية جاء العام ١٦٣١ .. مر عامان منذ احترقت أختها ..
الحرب في ذروتها .. ما زال أمام هذه الحرب اللعينة سبعة عشر
صامًا من الدم والقتال والجوع والطاعون والمجاعات ... تكن عبير
قدرت أنها لن ترى النهاية ...

في تلك الليلة قبلت الساحرة وشكرتها على كل ما قدمته لها ..
حملت يد المجد .. ومضت في الطريق ..

أول ما فعلته كان أن اتجهت لبيتها ..

فتحت الباب في حذر ودلفت للداخل .. ثم جثت تلثم أخويها ..
تلثم أباه وأما النائم .. لو صحا أحدهم هل يراها ..

ثم إنها اتجهت عبر السهل العريض ماشية جوار نهر ماين،
قاصدة القلعة ..

القلعة العملاقة الشامخة في الظلام .. لقد رفع الحراس
الكوبري المعلق، لكن من قال إن هذا يمنحها من الدخول ..

أغمضت عينيها وتلت التعويذة فارتفعت في الهواء ببطء ..
في الظلام وجدت نفسها واقفة في الطابية جوار حارس
ناثم ... اتجهت للباب وهبطت في درج حجري عتيق وسعد مشاعل
على الجدران

الدرج يقود للطابق السفلى .. سوف تجد الأمير .. ستجده عن
طريق ما في قلبه من قسوة. علمتها الساحرة هذا ...

أخيرًا هناك قاعة مفتوحة .. هناك مائدة هائلة، وهناك
مبفاة ترسل اللهب الرقراق في أرجاء المكان فترقص الظلال ...
الأمير فيليب أدولف هون أربيرج جالس يكتب شيئًا في مجلد
كبير .. إنه وحيد ..

غداً سيكون هناك حرق المزيد من الساحرات ..
أنت اتهمت فتاة رقيقة بريئة بأنها ساحرة .. اليوم تقابل
ساحرة حقيقية .. لا .. فلنر ما سوف تفعله !

كانت تحمل الشمعة في يد المجد فوضعتها على المنضدة ..

التفت الرجل مذعورًا عندما رأى هذه الفتاة الشابة تقف جواره ... كان ضخمًا جدًا لكنه بدا كطفل مذعور للحظة ..

ضحكت عبير في وحشية مستمتعة بالموقف. مد الرجل يده لسيفه يخرج منه غمدته فلم يستطع .. لقد التصق النصل بالعمد .. حاول الصراخ فلم يخرج صوت من حلقه .. حاول النهوض فوجد أن قدميه تزان طنين ...

قالت في قسوة:

.. أنت تجرب السحر الحقيقي الآن ... والان أرجو أن تجرب ما شعرت به أختي ..

فتحت زجاجة صغيرة بأسنانها وسكبت محتواها عليه وهو يرتجف في دعر ... لا بد أنه ينادى الحراس في فكره أو يهددها ...

ثم إنها وضعت شعلة الشمعة لتلمس السائل .. بدأت الشعلة تتوهج .. ثيابه تحترق .. نظرة دعر هائلة في عينيه .. توشكان على الخروج .. يئن من حنجرته ..

رائحة الشياطين .. جسد ينتفض ..

لو استطعت لأحرقتك ألف مرة لكن للأسف لا أملك سوى مرة

واحدة ..

لقد بدأ يتفحم .. نصفه تقحم والنصف الآخر يحاول الفرار .. هنا سمعت صراخًا وضجيجًا بالخارج .. جدران القلعة ترتج ..

يبدو أن هناك من يقذفهم بالمدافع

ماذا يحدث ؟

غادرت المكان ومسرح الجريمة فوجدت الفوضى في كل مكان .. الحراس يركضون ويصرخون .. هناك محاولة اقتحام للقلعة .. بل هي نجحت فعلاً ... لا بد أن المهاجمين كانوا يحملون كباري خاصة ساعدتهم على اجتياز الخندق ..

رأت أول الجنود السودانيين يهرع عبر الردهة ملوحًا بسيفه . ضخمًا أشقر كصور الفايكنج في خيالنا ..

هكذا عرفت أن هذا هو غزو الملك السوداني جوستاف أدولف، الذي سيدمر القلعة ويحتل فورتسبيرج . سيكون هذا الغزو هو نهاية عصر حرق الساحرات ..

لكنها غير خفية .. نسيت أن تسترد الشمعة .



هرعت إلى الخلف لتستعيد يد المجدد، لكنها فجأة أدركت أن
الجندي السويدي أطار عنقها بسيغفه . رأت الدنيا في وضع مقلوب
عجيب .. ترى الأرض الحجرية وأحذية الجنود وترى جسدها
بهيذا عنها ! ..

يبدو أن رأسها ما زال يرى العالم وهي لم تمت بعد .. لماذا ؟
فجأة فطنت للحقيقة المرعبة، التمويذة جعلتها لا تموت ..
لا تموت حتى بعد ما طار عنقها !... هذا أسخف مقتل مرت به في
حياتها ...

كيف الخلاص من هذا ؟

فجأة رأت المرشد يركع جوارها ويقرب رأسه من رأسها ،
.. ألا ترين أن الوقت مناسب للرحيل ؟ لقد أتممت انتقامك،

« »

لا صوت هنالك .. لا توجد رتتان تحركان حبالها الصوتية ..
مشكلة قطع الرأس هي الخرس.

قال المرشد وهو يداعب القلم،

.. هذا مازق كريكه، لذا أرى أن علينا القرار بسرعة .. سوف يهدم

جنود جوستاف القلعة كلها .. هيا بنا ،

لا تعرف كيف ولا متى وجدت عنقها على كتفها ..

كانا يغادران القلعة وسط السيوف والرصاص والدخان
والصراخ ما زالت حرب الثلاثين عامًا في ذروتها ...

وفي هذه اللحظة أدركت أن العالم يتلاشى وأنها تفتح
عينها ...

كنت أنا هناك أنتظر ..

★ ★ ★

عندما فرغت عبير من سرد قصتها كاملة دونت كل هذا في
مفكرتي ، ونظرت في الساعة . حلمها استغرق فعلياً ربع ساعة ،
لكن الأحداث تمت في ثلاثة أعوام تقريباً ..

اتجهت للباب فقالت في وهن،

.. ألا تريد بعض الشاي ؟

قلت لها بإسماً،

.. ليس الآن .. أعتقد أنك بحاجة للنوم بعد هذا الحلم

الحافل .. أنت البشري الوحيد الذي يبدأ ليته بالحلم وبعدها



التوم .. هل تحلمين أثناء نومك ؟

.. على قدر علمي لا .. يبدو أنني أفرع عقلى الباطن كله في
هانتازيا فلا يبقى ما يقال،

ثم أسمع باقي العبارة لأننى خرجت في الحارة المظلمة الباردة.
وسط الكلاب العاوية وتنهدت ...

إن رحلة شاقة تنتظرني حتى أصل لعلاء عبد العظيم ..

تمت

- ١ -

هذا الجو المميز الذي وصفته ألف مرة، ورائحة الليل الأفريقي، وعواء الوحوش في مكان ما من الدغل . أستطيع أن أرى وحدة سافاري كما تخيلتها مرارًا .. حرف A المميز وسيارات الإسعاف التي تحمل شعار الوجه الأسود . والهليكوبتر الخاصة بهم التي سقطت عشرات المرات من قبل . الحديقة الممتدة التي جلس فيها بعض المرضى وبعض الأطباء ..

هذا مكان يذكرك ببرج بابل .. يمكنك أن تميز ملامح عربية وأفريقية وغربية وآسيوية .. هذا الطبيب الضاحك بالتأكيد جاء من نسل الفايكنج. وهذه الممرضة توشك على أن تكون قد خرجت من الشاهنامة الفارسية، وهذه الهندية كأنها خرجت من جدران معبد في بنجالور.

وحدة سافاري ...

يمكنني أن أرى الوجه الودود الطريف لعلاء عبد العظيم اللحية الدوجلاس المحيطة بالضم والعوينات .. بعدما كتبت (سافاري) بأعوام قابلت هتان الكاريكانور د. شريف عرفة . فخطر لي أنه علاء وقد خرج من قصصي . كان هذا هو الانطباع الأول

قبل أن يخلق د. شريف لحيته وتغيير ملامحه . لكنه ما زال يحمل نفس الطباع . علاء عبد العظيم مصرى يجمع بين نقطتين : إنه مثقف ثقافة كبيرة وذوقه راق فعلاً ، وفي الوقت نفسه هو ليس مترفًا .. لقد رأى الكثير من (البهذلة) وجلس على مقاه قذرة وأكل شطائر موبوءة وتشاجر في دور السينما في شبرا .. أضف لهذا أنه يجيد الفرنسية بحكم كون أبيه مدرسًا بارعًا لهذه اللغة، وهي نقطة جعلته يجد الطريق مهذا للعمل بوحدة سافاري ..

ولدت سافاري في أواخر التسمينيات ..

كان هناك نوعان من القصص يروقان لي دومًا قصص الاكتشافات والحملات على غرار (كنوز الملك سليمان) و(كونفو) .. إلخ . والقصص الطبية المثيرة Medical thriller على غرار (خلية أندروميديا) و(غيبوبة) . خطر لي أن أصنع نوعًا أدبيًا واحداً من النوعين .. طب المناطق الحارة المثير .. أو،

Tropical Medical thriller

ولا تحاول البحث عن الاسم في جوجل، لأن هذا اختراعي الخاص . في هذا الوقت كنت قد بدأت أتصل بعدد كبير من أصدقائي الذين سافروا لأفريقيا بعضهم ضمن أطباء بلا حدود

أو صندوق التعاون الأفريقي .. بعضهم ذهب مرتجلًا يجرب حظّه في جنوب أفريقيا .. بعضهم في رواندا .. بدأت أتمل بهؤلاء الأصدقاء وكانت لدى كل منهم قصص فريدة . كما أننى قدمت في ذلك الوقت محاضرة عن الحميات النثرية، وما زال اهتمامى بهذه الحميات قويًا. هناك لمسة من سحر القبائل والحروب الأهلية طبعًا . قمت بصنع الخليط وهذه المرة لم يتهمنى أحد بسرقة الفكرة. أعتقد أنه خليط موفق ويولد أفكارًا لا حصر لها.

هكذا ولدت سلسلة ساهارى .. ولد علاء عبد العظيم وولدت الوحدة وولد الأطباء مثل شيلبي وبارتلييه وليفى وبرنات. اخترت الكاميرون لأنها تمثل حرب أفريقيا وأنا أعرف ثراء غرب أفريقيا بالحكايات المثيرة والأوبئة معًا، تكن لو دارت بي الأيام لاخترت سيراليون أو لاخترت قلب أفريقيا ذاته (الكونغو).

عرضت قصة الوباء على الأستاذ حمدي فراقت له .. وطلب منى القصة الثانية، وكما هي العادة لم ترق له .. لكنه أحب الثالثة نوعًا وهكذا ..

كانت ساهارى منذ البداية تمثل ما وددت لو فعلته في شبابه ولم أفعله. يمكن القول إن علاء نسخة أكثر شباهًا واندفاعًا وإيجابية من رفعت. مشكلة هذه السلسلة هي أن خلفيتها الطبية قوية جدًا

وقد لا تروق لمن لم يدرسوا دراسة علمية، لكنى حاولت التبسيط الشديد أولًا، ثم حرصت على أن تكون المعلومات في فقرات أو فصول يمكن الوثب عليها لمن أراد. قال لى صديق في كلية الحقوق إنه فهم من العدد (العاشر) أن هناك مرضًا مخيفًا في ساح العاج، ويحاول علاء مكافحته لكن هناك من يهتم ألا يفعل (...) فيما عدا هذا لم يهتم إلا بالمغامرة ..

لا أنكر أن هناك مرات عديدة أهلت فيها الأمور منى، لتصير الجرعة العلمية زائدة جدًا، مما يهدد بتحويل القصة إلى كتاب علمي مبسط. لكن ساهارى شهدت ألعابًا كثيرة في التكنيك، مثل (حكاية ثقب) و(حكايات من الناقال) و(الحادث) .. الدوائر المتداخلة والسرد غير الخطى ... هناك قصة على شكل مسرحية ... إلخ . أعتقد أنها أكثر سلسلة جريت فيها خلطًا سردية مختلفة ..

هذا أنا جالس مع د. علاء عبد العظيم وزوجته الكندية الحسنة. هي كائن رقيق ودود يذكرنى بماجى حبيبة رفعت جدًا. إن ماجى وبرنات تمثلان أفضل وأرقى ما هي الحضارة الغربية، لهذا كان بطلاي محظوظين ... لغة الحوار هي الإنجليزية ورغم أن الفرنسية تريحهما أكثر، لكن فرنسيتي سيئة جدًا ... أسوأ من

يا بايتى بكثير ...

برناتت تقدم لى عصير الليمون البارد. ثم تعود لتجلس وتهدهد ابنتها سارة . البيت مريح نظيف برغم أنه ضيق وأثابه بسيط جداً . لا يجب ان يكون الأثاث غالياً ليكون راقياً .

هذان زوجان سعيدان بالتأكيد .. لقد استحق علاء السعادة بعد ما عاناه ..

رشت من العصير ثم سألت علاء :

« أعرف أنك تنتظرنى »

تحسس لحيته وقال :

« بالتأكيد .. طلبوا منى أن أتعاون معك .

.. هل يذكرك رقم الثلاثين بشئ ؟ »

تبادل النظرات مع برناتت .. ثم قال :

« ثلاثون يوماً من الحمى أو فقدان الوزن أو الإسهال غير المبرر .. هذه من علامات الشك فى مرض الإيدز »

قالت برناتت بلهجة من لى يتوقف أيذا :

« ثلاثون يوماً من الصيام عند المسلمين .. ثلاثون ساعة صيام

عالمية لمساندة ضحايا المجاعات الرقم النثرى للزئك ... ثلاثون

قطعة من الفضة ليهذا الإسخريوطى .. ثلاث

ابتسمت وهزأت رأسى :

« لا أطلب معنى رقم ثلاثين عامة .. أطلب علاقتكما به ..

تبادل علاء النظرات مع زوجته ووضع ساقاً على ساق، ثم سألها :

« قصة ليريه والماعيا التى حكيتها لى تكرور رقم ٣٠ عدة مرات ... ما رأيك ؟ »

هزت رأسها فى حماس :

« فعلاً .. فعلاً .. مناسبة جداً »

« إذن سأحكى لك حالاً »



- ٢ -

قال علاء :

المدرسة الثانوية ..

هناك جزء مخصص للدراسة العسكرية .. المتواجدين والوقوف
سفًا وانتباه وسلام سلاح والزحف ... العرق والحر ولحمه مما
يراه الجنود فعلًا . ثم جاء اليوم الذى قالوا لنا فيه إننا سوف
نخوض تمرينًا بالسلاح .. بالرصاص الحى ..

كانت لهذا إثارة حقيقية، وقد خرجنا إلى ساحة خالية خلف
المدرسة . حيث رقد مدبرونا على الأرض، وكان على كل واحد منا
أن يتقدم .. تنام على بطنك وتصوب على هدف بعيد مكون من
دوائر عين الثور المعروفة ..

معظم الطلقات كانت لا تصيب الهدف طبقًا ، وهذا متوقع من
طلبة لم يمس أحدهم بندقية من قبل . لكنى شعرت بقصة
حقيقية وأنا أرى تلك القوة الهائلة ترتطم بجدار هيتناشر
القرميد والدخان ... تصور هذه القوة العارمة تخرق شيئًا هشا
طريقًا كاللحم البشرى ..

نمت على الأرض وقمت بتطبيق قاعدة النيشان (سن تلمة

الدبابة فى فتحة الشيس) المعروفة، وحبست أنفاسى .. أطلقت
الرصاصه فلم يحدث شيء .. ثم تخرج رصاصه أسلًا .

نظرت جوارى فلم أر المدرب ..

أين هو ؟ كان واقفًا مع زميل له على بعد مترين يمزحان
ويثرثران .

نهضت حاملًا البندقية والرمل يتساقط من صدرى وثيابى ،
ودنوت منه وأنا أقول ،

« البندقية لا تطلق يا هندم ،

رأى فكانه رأى رأس ميدوسا .. صرخ فى هستيريا وهو يبتعد
عنى ،

« أبعد الفوهة عنى ثم تكلم يا أحمد ... » .

فى اللحظة التالية دوت الطلقة .. بوم ! ..

وشعرت كأن هناك من يدفعنى للخلف ، وكان كتنى سوف
يتخلع ..

عندما هتحت عنى كان الكل متصلبًا يتخثر لنا فى ذهول . وكانت
البندقية على الأرض والدخان يتصاعد من فوهتها فى يراة

مصطنعة .. كأنها لم تفعل شيئاً ..

سمعت المدرب يصيح :

« بعد ضغط الزناد قد تظل الرصاصة قابلة للانطلاق ! ...

لا تجعلها لي ملوًا بها في عيني ، قائلًا إنها لم تنطلق ! »

هكذا عرفت أنني نجوت بمعجزة من قتل إنسان بالرصاص ..

كانت هذه ستكون جريمة قتلى الأولى ..

لماذا تذكرت هذه القصة اليوم ؟

★ ★ ★

الحياة في وحدة سافاري قد تكون رتيبة جدًا ومملة ، وقد تكون غاية في الإثارة . هناك أيام تتمنى فيها لو يتحرك أى شيء ، وأيام تموت فيها شوقًا من أجل استعادة يوم واحد من الأيام الهادئة .

كانت الحياة تمضى عادية بين مشاغبات باركر ، ومضايقات أبراهام ليضى ، ومهمات بارتلييه وهذا السيل الذى لا ينتهى من الجنسيات المختلفة الذين يبقون أيامًا أو يبقون للأبد .. بعضهم يارب وبعضهم أحرق .. بعضهم لطيف وبعضهم وعد ...

توطدت صداقتي بالبعض وتدهورت بالبعض .

كنت سعيدًا مع برنات في ذلك العش الهادئ الذى ينأى عن

الصراعات والمشاكل ، وكانت سارة هي شمعة صغيرة تضىء ظلمات حياتنا معًا . في لحظات كهذه وأنا جالس مع برنات نشاهد فيلمًا جديدًا على مشغل الأقراص المدمجة ، ونلتهم البطاطس المحمرة وسارة تزحف على البساط أمامنا . كان يخطر لي أن السعادة هي الاستقرار .. أن تصحو غدًا لتجد هذا كله ..

لست شريًا .. لي حساب مصرفي لا بأس به في مصر ، لكن كان يوسى أن أحقق مثله وأكثر لو كنت جراحًا ناجحًا في مصر .. ثم أحقق مكانة علمية مهمة ، لكنى سعيد راض . لقد كانت حياتي طيبة ورأيت وتعلمت الكثير ، وحافظت على كرامة وطني .. هذه نقطة مهمة جدًا . كل من عرفني قال إن المصريين شعب طيب . كل شعب له مزاياه وعيوبه ولديه أوغاده وملائكته ، لكنك تحتفظ دومًا بأول انطباع . لأن الانطباعات الأولى تدوم ، كما كان ذلك الإعلان في التلفزيون يقول .

بدأت القصة كما هي العادة في مكتب المدير في السابعة مساءً . استدعاني بارتلييه للقائه فذهبت متوجسًا . أحكمت إغلاق المعطف ووضعت السماعة على عنقي كما يحدث في السينما ، ثم دخلت وحييت السكرتيرة وتبادلت معها كلمتين ..

كان جالسًا إلى مكتبه مع رجل أشيب في الخمسين من العمر

تقريبًا. رجل متأنق من طراز الرجال الذين يطلب متى دأبًا أن
أساعدهم ويكون في هذا خراب بيتي .. وكانت جواره امرأة أنيقة
أرستقراطية تقاربه في السن ..

قال لي بارتلييه :

« أقدم لك د. فرنسوا لي .. لي .. »

قلت في مثل :

« فرنسوا ليريه .. معهد باستير .. تشرفنا يا سيدي »

نظر لي المدير في ذهول وقال غير مصدق :

« أنت .. أنت تعرفه »

« لدينا في اللغة العربية بيت شعر يقول ،

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تمرهوني

بالطبع أعرفه يا سيدي كل طبيب يعرفه في الحقيقة لم
أفعل سوى ما يفعلونه عند الشيوخ المشعوذين عندنا .. المرأة
المسنة التي تجلس مع الزبائن وتسال : « اسمك إيه يا شابة ؟
مالك يا ضنايا » ثم تتسلل لتخبر المشعوذ بهذا ، فيندھش الناس
ويكبرون عندما يتأديهم المشعوذ بأسمائهم .. عرفت هذه

التفاصيل من السكوتيرة الثرثرة .. قالت لي إن هناك من يدعى
(ليريه) من معهد باستير، معه امرأته وهي أفعى مؤذية لا يمكن
التفاهم معها ..

قال ليريه :

« تشرفنا .. حكى لي موريث الكثير عنك »

قال د. بارتلييه وهو يقدمني للسيدة ،

« مدام ليريه .. إنها طبيبة كذلك »

هذه المرة لم أستطع أن أقاطعه لأقول إنها أفعى طيعة .. لكن
من الجلى أنها مشاكسة مستقرة. نمت الصبي النكدى المزعج ...
كانت ترمقني في قرف وتعال، فرمقتها في ضيق واشمئزاز ..

نظرت متسائلاً إلى بارتلييه فقال :

« د. فرنسوا يدرس نوعاً جديداً من الفيروسات المخفية ..

هذا الفيروس ينتشر في مزارع القصب لدى العاملين هناك، وهو
يرغب في أن يرافقه أحد لأخذ عينات .. يعتقد أن هناك نوعاً من
الوطاويط ينقل هذا الفيروس للعاملين،

بالطبع كان هذا حورى في كل مرة .. هناك ضيف يريد أن يمتص
السحاب فلا بد أن أرافقه . أنا علاء سهل الإحزام . أنا علاء الأحرق ..

عاد بارتلييه يؤكد:

.. هو رجل مهم جداً في معهد باستير وزميل عمل قديم. وزوجته زميلة عظيمة ، لذا أتوقع منك تعاونًا تامًا ،

ثم راح يحدد لي النواحي اللوجستية للعملية . طائرة سافاري .. ممرضتان .. بودرجا طبيبًا .. قبائل الكيكويو .. ثلاثة أيام . أقباص وطاويط ... أنا بيبي اختبار...

.. هناك أكثر من عشرين حالة ظهرت مؤخرًا .. ليس الأمر مقلقًا .. لكن أرى أن واجب الحذر مهم .. لا يجب أن تتعرضوا لعضات الطواويط أو بولها ..

سوف أقرأ هذه الليلة المزيد عن الأمراض التي تنقلها الطواويط فلا أذكر منها إلا الكلب ..

جلست مع الزوجين ولاحظت بالفعل من القائد هنا .. شخص واحد له حرية الكلام واتخاذ القرارات .. وهذا الشخص ليس فرنسوا ليريه .. إن الأزواج الخنوعين يتكيفون مع أنفسهم بعد فترة ويتركون القيادة للزوجة المتسلطة، لكنني اندهشت لأن الرجل ما زال يقاوم .. ما زال يملك إرادة حرة ..

نحن الأطباء نعرف أنه عندما تكون مناعة الشخص منخفضة.

فإن المرض يمر دون ملاحظة .. لا تفضلن له إلا وقد سيطر على الجسد كله. بينما لو كانت المقاومة معقولة فإن العدوى تعلن عن نفسها ، وترتفع الحرارة وتحدث رجفة وعلامات تسمم . هذا الزوج ما زال يقاوم لذا حياته سيئة جداً ، بينما لو كان خنوعًا فعلاً لعاش في سلام .. البلدان التي تم احتلالها دون مقاومة ظلت حياتها هادئة نسبيًا ، بينما البلدان التي قاومت احترقت وعانى أهلها ، لكن هناك دومًا شيء اسمه الكرامة .. لا يقدر المرء على الحياة من دون كرامة مهما كلفه الأمر ..

في البيت قلت لبرنادت مهمومًا إنني نفيت مرة أخرى .. الأمر مستمر للأبد ... لا بأس .. ثلاثة أيام سوف تجد الشوق وتهزم الملل. للسفر سبع فوائد لا أذكرها، لكنني أضفت لها حقيقة أنك تكتشف أن حياتك قبل السفر كانت جميلة وتعود لها في شوق ..

★ ★ ★

تحلق الهليوكوبتر فوق حقول القصب الفنية في يافوسام.

لم أكن أعرف أن الكامبيرون غنية بقصب السكر لهذا الحد، لكن يافوسام على الأقل ثرية فعلاً ... لقد تحولت الأرض إلى عيدان قصب، وصار من الصعب أن تعرف أين تهبط ..

كان المكان يخص شركة كامبرونية كبرى ، وكان هناك مئات العمال - معظمهم من الكيكيو - لهذا لم نحتاج للتعامل مع رجال القبائل . كانوا يعرفون في الشركة بقدومتنا وينتظرون. وأعدوا لنا خيامًا .. وقد فرش (ليرييه) كيس نوم له وكيسًا آخر لزوجته .. واقترح على أن آخذ واحدًا لكنني قلت إنني سأتصرف .. لا أحب أكياس النوم بتاتًا ... تعلّيتي خوف الأماكن المغلقة (كلوستروفوبيا) ..

الزوجة راحت تمارس هوايتها في إصدار التعليمات والكلام بعصبية والفرق، وكانت تجوب المكان واضعة سيجارة بين شفتيها وقد دست يديها في جيبي بنطالها. عرفت أننا لن نتفق أبدًا فهي شرسة كالنمور...

كانت مهمة بسيطة هي أخذ عينات بطريقة عشوائية من العمال .. هناك طرق معقدة للعشوائية يعرفها الإحصائيون على كل حال .

أما أهم ما في الأمر هو أنني ذقت ألد قصب مرهته في حياتي . أنا من مدمني عصير القصب في مصر، لكن الحصول على شوب عصير بارد هنا كان طموحًا أكثر من اللازم ، لذا اعتمدت على المعصرة التي أعطاها الله بين فكي .. كانوا قد أعطوني (ماشيت) كبيرة

وهي قريبة مما نسميه (السنجة). هكذا رحت أجدول بين الأعواد وأقطع العود الذي يروق لي .. ثم .. تشرب !.... أقضم .. وألوك وأعصر .. العصير الحلو يبل لحيتي وصدر قميصي .. لا مشكلة . برنادات ليست هنا لتلطم خديها .. تشرب !....

أنا علاء الشره ...

كنت أعالج بعض الأعواد عندما سمعت صوتًا قريبًا ..

فجأة وجدت من يجذبني بقسوة بعيدًا ..

كدت أستدير لأحتج لولا أن رأيت الثعبان الذي وثب على يسقط على الأرض وقد أخطأني ... لم أستطع أن أصدق طوله ...

هتف العامل الأسود الذي أنقذني ،

« مامبا سوداء ! .. احترس دكتور ! »

قالها قبل أن يستدير الثعبان الفاضل نحونا من جديد ..

ووثب ..

هنا اقترب منا رئيس العمال، وهو رجل ضخم ملتج .. يلبس
السروال القصير وفانلة داخلية ويحمل (الماشيت) في يده ..
اسمه (بول شخص ما) ... كان يلوك لفافة تبغ، وقد قال وهو
يكشف عن أسنان صفراء عملاقة،

«سريعة جداً .. انقضاضها يطلق عليه (رشقة النار السريعة)..
طويلة جداً كذلك قد يصل طولها لأربعة أمتار،

شعرت بقشعريرة .. فوييا الثعابين عند كل الناس، وتشعرهم
أن الثعبان شيء خارج قوانين الطبيعة ...

عدت أسأل متوجساً،

«لا أعتقد أنه سام .. إنه طويل جداً بالنسبة للثعابين السامة..
أعتقد أنه عاصر مثل البوا والآناكوندا،

ضحك الرجل من بلاهتي وقال،

«بل هو من أكثر الثعابين سمية .. يفرغ سمه فيك في أقل من
عشر الثانية لدرجة أنك لن تصدق أنه عضك ! على فكرة لونه
ليس أسود بل هو أقرب للبني،»

قال يودرجا في فخر للمرة الثانية،

«المامبا السوداء دكتور .. تعيش دوماً في حقول القصب ..»

- ٣ -

من جديد من الثعبان جوارى ..

حاول ان تتخيل شيئاً طوله متران .. أى أنه أطول من أى رجل
تعرفه، وهذا الشيء يطير في الهواء نحوك فلا تعرف إلى أين
تذهب ..

كان الشيء اللعين يزحف بسرعة ليفوص وسط عيدان القصب،
وسمعت (ليريه) يشهق فزعاً ..

كان يراقب المشهد في ذهول .. بينما هرع العمال الحفاة ذوو
السراويل القصيرة يركضون وراء الثعبان .. بهذه الأقدام الحافية
سوف يكون قتلهم سهلاً جداً ...

أنا علام المحفوظ الذي ينجو من الموت في كل مرة ...

دنا منى يودرجا وقال لاهتاً،

«هذه هي المامبا السوداء دكتور .. تعيش دوماً في حقول

القصب ..»

تساءل (ليريه) في رعب،

«لماذا لم يبنرونا بذلك ؟ ..»

تساءلت الزوجة العصبية المسيطرة:

«لماذا حقول القصب؟»

«الإنسان تعدى على موطنها .. وهى تنتقم .. لهذا يموت الآلاف من عضائها كل عام»

قال رئيس العمال الذى يعرف كل شيء عن المامبا باعتبارها رفيق عمل قديم:

«هى كذلك تهدد ضحاياها فى الوضع الناصر المميز للكويبرا .. لهذا يحسبها الكثيرون كويبرا ملكية .. على فكرة هى تقتل الضحية بالسم ثم تلتف حولها كما تفعل الثعابين العاصرة ، سألته فى رعب:

«وهل سمها قاتل؟»

«خلال ثلاثين دقيقة .. يشل الجهاز العصبى والقدرة على التنفس»

هى إذن من الثعابين Elapid وليست من الحيات Vipers ... الثعابين سمها عصبى .. أما الأفاعى فسمها يدمر الأوعية الدموية ..

أشعلت الزوجة نفاثة تيغ وقالت:

«قصب سكر وثعابين مميتة ورجال حفاة ... أنتم إذن فى خطر داهم .. يستحيل أن تتروا الخطر قبل حدوثه .. ويدهشنى أن يمشكم ما زالوا أحياء»

قال رئيس العمال ضاحكًا:

«لم يقل أحد إن الحصول على الرزق سهل .. على أن رجائى صاروا خبراء - يعرفون أين يمكن أن تتوارى المامبا .. بل هم يسمعون هسيسها من بعيد .. عيونهم مفتوحة وأسلحتهم مشرعة .. وبرغم هذا نحن نفقد عشرة رجال كل شهر تقريبًا بسببها .. الأمصال لا تكفى وبعضها تالف .. لهذا أرجو ألا تدخلوا مناطق القصب أبدًا ..»

لم تكن فى حاجة لهذه الدعوة ..

من أعماقى كنت أرتجف .. صورة قذيفة الموت التى انطلقت نحوى مرتين لم تفارق ذهنى .. لم أنج إلا لأن الله أراد ذلك ..

ثلاثون دقيقة .. (.. سوف تضيق ريع ساعة لتفهم ما حدث وتصاب بالذعر .. بالطبع لا يكفى الوقت الباقى لأى شيء .. ما لم يعنى الثعبان حامل المصل نفسه)

قال (ليريه) وهو يرتجف حماسة،

«قاتل .. قاتل هاتن فعلا..!»

★ ★ ★

وتفرقتنا لنواصل عملنا .. مع أننى صرت بالفعل فى حالة هستيرية لعينة .. رأيت (ليريه) يتكلم مع بعض العمال فلم أفهم ماذا هنالك .. رأيت العامل يهز رأسه موافقاً ..

رحت أنا والزوجة الشرسة نقوم بعملنا، وكان هناك من اصطاد لنا بعض الوثاويط وضعناها فى أقفاص .. حذار من عضتها فلا نريد أن نضيف الكلب - بفتح الكاف - إلى هذا كله ..

كان المساء قد اقترب وبدأ الجو يتلون .. هذا اللون الأزرق الحبيب، لكنه كذلك يخيف .. أن تتحرك فى مكان يعج بالثعابين التى تثب .. هذا شيء مرعب ..

لكن رئيس العمال الذى يدعى (بول شخص ما) وضع كفه الغليظة على كتفى وقال،

«الماميا لا تهاجم إلا نهاراً دكتور .. هناك أفاع ليلية»

هذا مطمئن .. عندما أموت سيسعدنى أن أعرف أن الماميا ليست من قتلنى بل هى أفعى رقيقة ..

على كل حال هذا يوم قد مر من هذه المهمة اللعينة .. سوف ينتهى هذا كله سريعاً ..

رأيت أحد العمال ينادى (ليريه) فيهمس له بشيء ثم يناوله كيساً من الخيش الغليظ .. هز الرجل رأسه وتوارى بعض الوقت ثم لحق بنا وهو يضحك ..

أشعل الرجال النار والتفوا حولها .. وظهرت زجاجات خمر من مكان ما وراحوا يقنون أغاني الكيكويو، أما نحن فقد جلسنا جوارهم . أردت شرب بعض الشاى فتطوع بودرجا بأن يجده لى .. وظهرت بعض الشطائر ..

سوف نسمّر طويلاً ثم ندخل لننام .. لا أعرف كيف أنام بعد كل ما رأيت، لكننى سأحاول . معى مهدئ خفيف لحسن الحظ وسوف أتناول قرصين منه .. ربما جعلنى هذا أنام أسرع ..

هجأة صرخ بودرجا وهو يثب ،

«ماميا !»

وثبت بدورى لأرى ثعباناً طوله يقترب من ثلاثة أمتار يقف على بعد أربعة أمتار وقد نشر جسده وقأه ثلوثب . ثعبان سيئ الخلق يهاجم ليلاً ولم ينم مع أقرانه ..

أردت أن أقول شيئاً، لكن في نفس اللحظة هوى أحد العمال بالماشيت على المامبا في الثانية التي تاهبت لكوب هيا ... وعندما استلمت أن أرى، وجدت أن الجسد الناشر بلا رأس .. برغم هذا ظل منتصباً في وضع الهجوم .. أما الرأس فتدحرج بعيداً .. تذكرت الهيدرا المخيفة في الأساطير الإغريقية ..

هوى العامل مرة أخرى على الجسد فتمزق تماماً .. ثم جاء العمال يسحقونه بأقدامهم الحافية .. هذا المكان خطر فعلاً.

نهض (ليريه) إلى حيث سقط الرأس المقطوع ... راح يتأمله في انبهار ثم انحنى ليلتقطه بمنديل ورقي ..

عاد قرب النار ووضعه على الأرض ليراه في ضوء اللهب ..

قلت له ما معناه :

« لماذا تحتفظ بهذا الشيء المظرف ؟ »

قال وهو يتأمله في التفتان :

« تخيل أن هذا الرأس يحمل الموت .. الموت خلال ٣٠ دقيقة ..

هذا شيء مريع ،

« رسامة البندقية تحمل الموت في عشر ثانية .. ثم ينبهر بها أحد ،

« القوة المفزعة للطبيعة تبهرنى ،

جلست الزوجة جواره وطوقت كتفه بساعدها .. لحظة حنان نادرة يبدو أن الليل والحقول والنعابين قد ولدتها في نفسها .. ومن الغريب أن ظهره تقلص تلقائياً كأن لمستها بشعة ..

هذان يخوضان آخر أيام زيجتهما .. خطر لى هذا الزوج

ما زال يقاوم أو هو ساريقاوم، ولولم يقاوم لطلت هذه الزيجة .. هل هناك شابة حسناء في الموضوع ؟ سكرتيرة أو طبيبة في المعهد ؟

لا أدري ..

رأيتها تمسك بيده وتهمس له بشيء ... وهو يهز رأسه ..

تري ماذا يقولان ؟

ثم نظرت نحو بودرجا العزيز .. لقد بدأ جفناه يتقلان، وهذا غريب بعد هجمة ثعبان .. لا ذكريات تعيش في ذهن هذا الرجل أكثر من ربع ساعة .. لهذا هو سعيد دائماً ..

الذهب يتراقص .. والرجال يغنون وقد لعبت الخمر برءوسهم
فنهض بعضهم يرقص ويركل الغبار .. بدأت أشرد وأنا أرمق
النار..

سارة تفقو في مكان ما في حضن أمها .. تحلم .. هل تحلم بي ؟
هي لا تعرفني أصلاً إلا عندما تراني .. برنات الرقيقة هناك ...
(ليريه) يمد يده بعصا، ويمسك في رأس الثعبان المقطوع شارباً
وهو يصغى لزوجته ..

وهجاء رأيت مشهداً لا يصدق ..

لقد وثب الرأس المقطوع في الهواء لينشب أنيابه في ساعد
الرجل !

- ٤ -

عندما فتحت عيني كان الكل متصلباً ينظر لنا في ذهول، وكانت
البندقية على الأرض والدخان يتصاعد من فوهتها في براءة
مصطنعة .. كأنها لم تفعل شيئاً ..

سمعت المدرب يصيح :

- بعد ضغط الزناد قد تظل الرصاصة قابلة للانطلاق !...
لا تجلبها لي ملوفاً بها في عيني . قاتلاً إنها لم تنطلق !

★ ★ ★

تحول المكان إلى سيرك ..

راح الطبيب الفرنسي يصرخ ويتلوى، وراح يرقص رقصة
الجنون . بينما راح الرجال يحاولون منعه من الحركة كي ينتزعوا
الرأس ...

- الفوووووووووووووووووووث ! -

وكان صوته قد صار رهيقاً كامراًة تولول. وراحت الزوجة
تحملق غير هاهمة ما يحدث. أخيراً استطاع الرجال أن يلقوا به
أرضاً جوار النار والتقط أحدهم غصناً مشتعلًا من النار فحرق
به الرأس ليتخلى عن اللحم .. هذا يذكرني بطريقة السجارة

المشتعلة التي يحرقون بها تلك سحلية (وحش جيلا) لتتخلى عن اللحم الذي تعضه .. وباستعمال القطن ألقوا بالرأس في النار ..

الآن ركع (ليريه) على ركبتيه وراح يعوى كالأطفال ..

ركعت جواره وتفحصت الجرح .. الثقبين الكريهين في لحم الساعد .. طبخا كطوا عن سياسة قطع اللحم بالموسى على شكل صليب وامتصاص السم .. هذا كلام فارغ علمته السينما للناس .. يكفى أن تربط الساعد فوق الجرح لتبطل سريان السم للقلب .. فعلت هذا طبخا ..

قالت الزوجة في رعب ،

«هذه كارثة .. الرجال تكلموا عن ٣٠ دقيقة قبل الموت !»

قال رئيس العمال في قلق ،

«أنتم لديكم جهاز لاسلكى فى الخيمة .. اطلبوا هليكوبتر

سافارى فورا .. قولوا له أن يحضر مصلى الثعابين .. سوف نعطيه له هنا ..

«أليس لديكم مصلى ؟»

«لدينا لكنه تالف !»

هرعت الزوجة ركضا نحو الخيمة وهى تحمل كشاف نيون صغيرا فى يدها .. وراحت تردد ساقفل ساقفل مكلمة لا أحد ..

عدت أسأل (بول شخص ما) فى شك ،

«هل تصل الهليكوبتر بالسرعة الكافية ؟»

«لو كان هناك طيار جاهز فسوف يستغرق ثلاث ساعة تقريبا ..

الوقت ضيق لكن لا يوجد سبيل آخر ،

الظلام والتوتر والنار المتراقصة ..

لقد انتهى مرج الرجال ..

على الأرض يرقد (ليريه) ساكنا ينظر لنا بعينين خائفتين ..

العرق يغمر جبينه ... قال همسا ،

«هل رأيت الرأس ؟ لقد قطع منذ نصف ساعة .. ثلاثين

دقيقة !»

قال رئيس العمال :

«الثعابين تحتفظ بانعكاساتها طويلا .. هناك حوادث عن

رموس ثعابين ظلت تقفز وتعض بعد قطعها بثلاثين دقيقة ،

كنت قد قرأت عن حادث مماثل .. الطباخ الصيغى الذى كان يهد

حساء الكوبرا الناضرة لضيوف المطعم. أنت تعرف تلك الأطعمة الصينية العجيبة صعبة التحضير. عامة يأكل الصينيون أى شيء مقرف ويزعمون أن هذا منشط للبقاء. كان الصياد قد قطع رأس الكوبرا.. ثم تهايا ليلقيه في القمامة بعد نصف ساعة من قطعه. هنا دبت الحياة في الرأس وأطبق النايان على وجهه. سمع الناس صراخه. ولم تصل الأسماك إلا متأخراً بعد ما تفقد الرجل أنفاسه.. هذا درس قاس لم يتعلم منه شيئاً..

لقد حدث الشيء ذاته اليوم..

ثلاثون دقيقة منذ قطع الرأس.. ثلاثون دقيقة قبل الموت.. عادت الزوجة من الخيمة، وجلست راكعة جوار زوجها وأخرجت منديلاً وراحت تجفف العرق عن جبينه.. ثم أخرجت قنينة عطر وراحت ترش منه على عنقه..

سألتها في نفاذ صبر:

.. هل اتصلت ؟

هزت رأسها أن نعم..

كانت الساعة التاسعة مساءً.. لا بد أن العضة حدثت في التاسعة إلا سبع دقائق..

.. هل الهليوكوبتر جاهزة ؟

.. قالوا هذا ..

هنا أفرغ (ليريه) معدته على الأرض.. هذه بدايات علامات سريان السم في الدورة العامة.. وهذا معناه أن إعطاء المصل ضرورة ملحة..

راحت تجفف فمه..

كم الساعة ؟ ... التاسعة والربع..

هل نسمع هدير الهليوكوبتر ؟ .. لا .. الزوج بدأ يهذى .. هذه علامة لعينة أخرى..

التاسعة والثلاث..

هنا لم أعد أتحمل.. فأخذت الكشاف النيون وهرعت نحو خيمة الزوجين قبل أن تعترض الزوجة. جلست على الأرض وبحث عن جهاز اللاسلكي.. أعتقد أنني أستطيع تشفيله. ولكن..

من من من من من من

صوت كأن هناك أنبوب غاز مثقوباً.. ما مصدره ؟

ثم وقف شعر رأسى.. الصوت آت من كيس النوم...

اتجهت نحو الكيس وتحسسته بحذر .. بالتأكيد هناك شيء
ما بالداخل .. شيء أسطواني حي ؟ ... لا يقدر على الخروج لأن
الزمام (السوستة) مفلق .. لكنه يحاول ...

س س س س س

عدت لجهاز اللاسلكي وعيناي لا تفارقان كيس النوم.. وحاولت
تشغيله ،

« هاللو ... هاللو .. سافاري .. من معي ؟ »

بعد لحظة سمعت جاء الصوت المعلنى :

« ميشيل .. حوّل Roger ،

« أنا دكتور علاء عبد العظيم .. نحن في بافوسام .. متى تصل

الهليوكوبتر ؟ .. حوّل Roger ،

لحظة سمعت ثم قال الصوت في دهشة ،

« أى هليوكوبتر ؟ حوّل Roger ،

« لدينا مصاب بعضة ثعبان .. طلبنا المصل .. حوّل

، Roger

بعد سمعت قال :

« لم يتصل بنا أحد .. هذا هو الاتصال الأول .. سوف أبلغهم
لتقاع الهليوكوبتر حالاً ، لكن لا تتوقمها قبل ساعة .. حوّل
، Roger

جف ريقى .. طلبت منه أن يسرع ثم غادرت الخيمة ..

لقد مرت الثلاثون دقيقة .. بل مرت أربعون دقيقة تقريبا ...

هناك كانوا يقفون حول النار وقد رقد (ليريه) حيث هو ..
وكان الآن شاخص البصر جاحظ العينين يسيل اللعاب من فمه،
ويردد ،

« الهيدرا ؟ .. سوف أقتل الهيدرا .. هات سيفك يا برسيوس ...

المامبا ترقص السامبا ؟ ... هه هه ؟

ثم التوى عنقه وراح يردد ،

« هل لتحقين بي يا ماري ؟ .. هلم تعالى يا ماري .. سوف أمهد

لك الطريق ؟ »

وبدأ يغنى أغنية فرنسية ما .. ثم تصلب وأدركت أنه يجاهد
للتنفس .. يفرق على اليابسة .. لقد شل حجابيه الحاجز تمامًا .. لون
وجهه يتحول للرمادي بسرعة مذهلة .. رقدت جواره وحاولت أن
أضغط الصدر في عملية تنفس صناعي ... استمررت كثيرًا جدًا

سماعى لأننى أُلصقت فى بأذنها،

.. لم يتصل أحد بوحدة سافارى حتى التاسعة والثلاث .. كنت تكذابين .. لقد حاولت أن تضيعي الثلاثين دقيقة بأى شكل .. وقد نجحت فى ذلك ..

راحت تنظر لى فى توحش وسدرها يعلو ويهبط ولم تتكلم .

قلت لها بذلك الهمس الصارخ عالمًا أن أحدًا لن يميز كلامى،

.. على كل حال أعتقد أنه لاقى جزاءه الشعرى .. لقد رأيت كيس نومك وعرفت أنه حبس داخله شعبان مامبا .. من السهل أن أتصور ما حدث ... لقد أعطى مالا لأحد العمال هنا كي يصطاد له واحدًا فى كيس من الخيش .. قال له إن الأمر يهمه علميًا . عندما جاء العامل بالكيس فتح زوجك كيس نومك وترك الثعبان المخيف ينزلق خارجًا . هكذا كنت أنت ستتامين ولن تستيقظى أبدًا، وكان سيتخلص من شمعطاء مشاكسة مثلك ، ويلقى الجميع اللوم على هذه المنطقة الخطرة التى تعج بالثعابين ،

ظلت تنظر لى بذات التوحش كأنها نمر غاضب يطل من وراء قضبان قفصه فقالت،

.. بعد ما تعرض للفضة هرعنت أنته بالخيفة لتتصلبى .. هنا

حتى شعرت بيد رئيس العمال على كتفى وهو يقول،

.. كفى يا دكتور .. لا جدوى من غير مصل .. هذه هى المامبا !، جلست جوار الجثة شاعرًا بالعجز .. وسمعت الزوجة تنهذه باكياً ..

لا أعرف متى جاءت الهليوكوبتر .. لقد غرق المكان فى الكشافات وراحت أعواد القصب تهتز يمينًا ويسارًا ... وفى النهاية هبطت فى رقعة خالية ووشب منها طبيبان ومهما جهاز محلول ومحاقن . لم يكن هناك داع .. لقد مات الرجل فعلاً ..

★ ★ ★

ارتفعت الطائرة من جديد وفى هذه المرة كنا جميعًا فيها، ورأيت العمال ينظرون لنا فى ضوء كشاف الطائرة التى دارت دورة ثم حلقت عائدة إلى سافارى ..

لقد حملنا حاجيات مسكرنا لكنى تركت كيسى النوم وطلبت من الرجال حرقهما دون مناقشة ..

جثة (ليريه) معنا مغطاة بملاءة والزوجة (الباسلة) تجلس جواره والدموع فى عينيها ..

دنوت منها وقلت لها همسا . وبرغم محركات الطائرة كان يوسعها

الأضواء المتناثرة وأشجار النخيل :

« لا يوجد شيء أفعله .. لقد بدأ زوجك اللعب بقذارة وتلقى عقابه . ثم إننى لا أستطيع اتهامك بشيء ، ولا توجد محكمة تدينك لأنك تأخرت فى الاتصال ،

التمعت ابتسامة نصر على شفيتها فقلت :

« لقد تعلمت على كل حال أن الانتقام آت لا ريبه .. سوف تدفعين الثمن غالياً بشكل ما .. ربما بحبيب غادر أو سرطان رحم أو حادث أليم ..

قالت فى برود :

« شكراً لك .. سأحرص على ألا يحدث هذا ! »

وكانت طائرة الهليكوبتر قد بدأت تهبط .. وتساءلت عما حدث لكيس النوم المفلق .. هل أحرقه الرجال فعلاً ، أم أن غريزة (الاستخسار) جعلت أحدهم يجربيه ؟ هل دخله أحدهم وماذا حدث بعدها ؟ للأسف إن أسئلة كهذه لا تؤرقنا هنا فى سافارى .

رأيت ما رأيته أنا .. كيس النوم مفلق وبداخله شعبان .. عرفت على الفور الخطة التى دبرها زوجك وقررت أن ترتكبى جريمة من نوع آخر : التباطؤ . هلمت الأحقق .. لن يلاحظ أحد أننى لم أتصل .. من سيلاحظ إن تأخر الاتصال عشر دقائق أو ربع ساعة ؟ لا مشكلة . لحظات من التأخير .. دعى ثلاثين دقيقة تمر وسوف يأتى لك الانتقام .. أعتقد أن زوجك فطن بعد العضة لما فى القصة من عدالة شعرية ، لكنه سعد للسماء وقتل ينتظرك متوقفاً أن تلحقى به لكنك لم تفعلى ! .. تذكرى آخر كلماته حول هل تلحقين بى يا ماري .. أنا سامهد الطريق لك .. الخ ... لا بد أنه يشعر بالخديعة الآن ،

بعد لحظة صمت قالت :

« لقد فهمت اليوم كل شيء .. لدى مرض البول السكرى لكنى لا أجد الإنسولين فى نفس المكان فى شقتى أبداً ... اليوم أعرف كذلك حقيقة علاقته بسركرتيرته فى المعهد ،

ثم نظرت فى عيني وقالت :

« ماذا تنوى عمله ؟ »

قلت وأنا أرى وحدة سافارى بشكلها المميز يلوح من بعيد ..

خاتمة

هكذا انتهى دكتور علاء من قصته التي تتعلق برقم ثلاثين ..
ربما كانت لديه حكايات أخرى لكن هذا ما جاء بذهنه على كل
حال ..

وعندما غادرت أنجا والتيرى أخيرًا كنت أشعر برضا ..
هناك ثلاث حكايات في جعبتي ، وكل حكاية لها طابع بطلها
الخاص .. وأعتقد أن أفضل احتفال أقوم به هو أن أضع هذه
القصص الثلاث بين دفتي كتيب صغير أهديه لك ، وأهديه للرجل
العظيم السموت الذي لم يعد بيننا الآن ، حمدي مصطفى ..
تري هل كان سيروق له ؟ بيتسم ابتسامته الخفيفة ويقدم لي
قطعة كاراميل ، ويقول ،

.. كويسة يا دكتور ..

أم بيتسم نفس الابتسامة الخفيفة ، وهو شارد الذهن . وينظر
إلى شاشة المراقبة ليري ما يدور في أرجاء مملكته ، ثم يقول لي
وهو يشعل لفافة تبغ سابعة ،

.. برضه كنت عاوز أعيش فيها أكثر من كده ،

لن أعرف رأي أ. حمدي مصطفى أبدًا ، لكنني أنتظر رأيك أنت ..
كل ثلاثين عامًا وأنت بخير .

د. أحمد خالد توفيق

تم بحمد الله



د. أحمد خالد توفيق

١٣

عندما طلبوا مني أن أقدم عددًا خاصًا بمناسبة مرور ثلاثين عامًا على صدور الروايات، تحمست بشدة... كانت المغامرة رقم ثلاثين في حياة رفعت هي (بعد منتصف الليل) -

المغامرة رقم ثلاثين في حياة عيبر عبد الرحمن هي (عبرى) وهي محاولة مشنية لاستكشاف عالم دستويفسكي -

المغامرة رقم ثلاثين في حياة علاء عبد العظيم هي (قصصات)، وهي تحكي عن تجربته مع قراءة الوجدان الجمعي لطبيب إسرائيلي.. ترى ماذا يمثل رقم ثلاثين لكل منهم؟



الخط الساخن

19350

للتواصل مع المكتبة الوطنية المصرية



التنم في مصر 5

وما يفعله بالوثائق الأمريكية في سائر الدول العربية والعالم